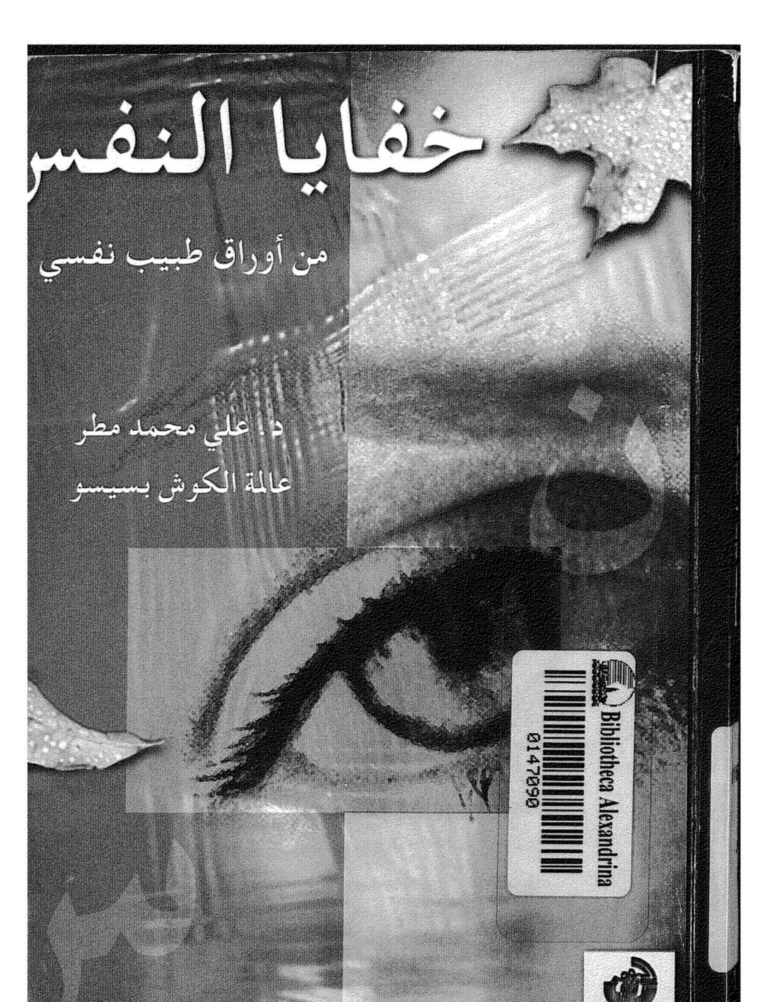

خفايا النفس
من أوراق طبيب نفسي
د. علي محمد مطر
عالمة الكوش بسيسو
Bibliotheca Alexandrina
0147090

خفايا النفس

من أوراق طبيب نفسي

الدكتور علي محمد مطر و عالمة الكوش بسيسو

استشاري الطب النفس كاتبة قصصية عربية

(وزارة الصحة)

أستاذ مشارك (جامعة الخليج العربي)

1995



دلمون للنشر

إهـــــداء

إلى من كان مصدر الإلهام لهذا الكتاب. إلى كل من عانى من مرض نفسي، وحضن ذلك في خافقه خشية من جهل مجتمعه. إلى كل هؤلاء الجنود المجهولين، المؤلفين الحقيقيين لهذا الكتاب، نهدي هذا الكتاب.



خصص الريع العائد
من بيع هذا الكتاب لصالح
الجمعية البحرينية للتخلف العقلي



مطر، علي وعالمة الكوش بسيسو.
خفايا النفس: من أوراق طبيب نفسي.
تأليف: د. علي محمد مطر وعالمة الكوش بسيسو.
دار دلمون للنشر، نيقوسيا : 1995, 210 ص.
ردمك 3-31-570-9963 ISBN

- العنوان
- قصص
- علم نفس

كلمة شكر وتقدير

أول الشكر والتقدير يذهب إلى طبيبة المستقبل، بسمة نايف حرارة، التي بذلت الكثير من الجهد والوقت وساعدت في الترجمة والإعداد، وإلى الإبنة العزيزة، مي إبراهيم مطر، على مراجعتها لمادة الكتاب واقتراحاتها التي أخذنا بها، وإلى نوال كمال وعبدالجبار الغسرة على ما بذلاه من وقت في المساعدة في الطباعة. وأخيرا، ولكن في الواقع هو أولا، إلى شريكي الدرب، دانة فخرو وعدنان بسيسو، على دعمهما وتشجيعهما المستمرين، وهما اللذان وقفا وراء كل خطوة من خطوات هذا الكتاب. إليهم جميعا نتقدم بخالص الشكر والتقدير.

المؤلفان

تقدمة فكرية .. و"اعتراف" نفسي

بقلم:

أ.د. محمد جابر الأنصاري*

ما نعاني منه في حياتنا العلمية وحياتنا العامة عزوف الاختصاصيين والمختصين عن تسجيل تجاربهم العملية المتعلقة بجوانب مهنهم وتخصصاتهم.

وما أكثر التجارب الغنية التي مرت على هؤلاء في مسيرة العمل والجهد والعطاء بنتائجها ودروسها وعبرها.. ثم ضاعت دون أن تسجل وتوثق في كتب منشورة يستفيد منها زملاء المهنة والأجيال الجديدة من الطلبة والدارسين في مجال المهنة، وكذلك الجمهور الواسع من القراء والمواطنين الذين تهمهم بشكل أو بآخر هذه التسجيلات والتحقيقات العلمية-العملية التي تمس هذا الجانب أو ذاك من جوانب حياتهم.

---

*عميد كلية الدراسات العليا /أستاذ دراسات الحضارة الإسلامية والفكر المعاصر /جامعة الخليج العربي - البحرين.

ولا أعتقد أنه توجد مهنة اختصاصية أو عامة لا تهم المجتمع ككل في شأن من شؤون حياته الصحية أو الاقتصادية أو السلوكية أو الثقافية.

ومن هذه الزاوية العلمية العامة -أولاً- يستحق هذا الجهد الجديد الذي يضعه الدكتور علي محمد مطر بصفته الاختصاصية والتدريسية في مجال الطب النفسي، التنويه والإشادة؛ لأنه أخرج من ناحيته "أسرار" المهنة من نطاقها المضروب حولها إلى دائرة "الضوء" العلمي والاهتمام العام، وقدم نموذجا، أعتقد أنه يستحق الاحتذاء من قبل كل الاختصاصيين في مهنته وسائر المهن العالية الأخرى لإتاحة المجال للآخرين كي يشاركوهم في تجاربهم الغنية وما توصلوا إليه من نتائج وخلاصات تستحق التسجيل والتوثيق. فبهذه الطريقة التراكمية من التجارب الموثقة نمت علوم الحضارة وتراكمت نتائجها وأصبحت عاملا من عوامل التقدم الإنساني.

وذلك ما نفتقده كما قلت في حياتنا الوطنية والقومية في هذا الجزء من العالم. وتأتي مشاركة كاتبة قصصية عربية ذات خبرة وعطاء في مجالها - وهي السيدة عالمة الكوش بسيسو- التي سيلمس القارئ أسلوبها الشائق في الصياغة القصصية للحالات النموذجية لكل فصل لتقدم مثالاً جديراً بالتأمل لتضافر العلم والطب من ناحية مع الأدب والفن من ناحية أخرى، في تقديم هذا العطاء المشترك الذي يعتمد الوسيلتين والمنهجين -المنفصلين في العادة- لإيصال هذه التجارب النفسية الحقيقية إلى أوسع دائرة ممكنة من المهتمين والقراء والجمهور العام لاستخلاص الدروس اللازمة منها. وليس أقوى تأثيراً من حقائق العلم إذا استندت إلى شفافية الفن وقدرته على الإيصال.

أما البعد الآخر لتمّيز هذا الجهد العلمي المشترك وضرورة الاهتمام به، فهو كونه مقاربة تجريبية-علمية لواحد من أكثر المجالات حساسية في الحياة الفردية والحياة العامة.

فهل أعقد من مجال الطب النفسي والمرض النفسي بالذات وما ارتبط به منذ أقدم العصور، ويرتبط به إلى الآن في عصر العلم، من تصورات وأوهام وافتراضات أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها تضيف غموضاً وحيرة بشأنه، أكثر مما تعمل على تفكيك عناصره، وردها إلى أسبابها الحقيقية، وتسليط ضوء الحقيقة العلمية والمعالجة الطبية الصريحة على خفاياها وتعقيداتها.. ومع تصاعد عوامل الضغط الاجتماعي والاقتصادي والتقني والبيئي على الأفراد والجماعات في عصرنا هذا فإن "الأمراض" النفسية في ازدياد ولا بد من معالجات منهجية منتظمة لها تعتمد -أول ما تعتمد- على الحقائق والتجارب العملية بعيدا عن التصورات والأوهام.

وبلا شك فإن الطب النفسي الحديث -حيال هذا الازدياد وتحدياته- قد خطا خطوات واسعة نحو تطوير ذاته، وتخطى حدود مدرسة التحليل النفسي النظري والسيكولوجي المجرد إلى منهجيات ومعالجات أصبحت أقرب إلى الطب الطبيعي أو "العضوي" منها إلى الطب "النفسي" بمفهومه التقليدي.

وكما نصت مقدمة الكتاب فإن الفرضية أو بالأحرى الحقيقة العلمية-الطبية التي تستند إليها فكرته الأساسية: "هي أن للأمراض النفسية، كغيرها من الأمراض "العضوية " الأخرى، أساساً عضوياً مرجعه المخ الذي ينظم وظائف جميع الأعضاء في الجسم، ومن هذا المنطلق للأساس العضوي للأمراض النفسية، يأتي هذا الكتاب..."

والواقع أن كل فرع من فروع المعرفة الإنسانية طبيعياً كان أو اجتماعياً أو نفسياً يطمح إلى اكتساب مصداقية العلم المختبرية بوثوقيته وحسمه النهائي في تقرير الحقائق والوقائع بعد فصلها التام عن دائرة الأوهام والتصورات والنظريات.

وإذا كانت العلوم الطبيعية قد استطاعت بحكم موضوعها اكتساب هذه اليقينية العلمية منذ زمن، فإن العلوم الاجتماعية والإنسانية مازالت تكافح لتحقيق هذا المطمح العلمي رغم استعصاء موضوعاتها على السبر المختبري.

ويمثل "علم" النفس ثم شقيقه الأصغر، لكن الأكثر نضجاً (الطب النفسي) تلك المنطقة الرمادية الواقعة على التخوم المشتركة للعلم الطبيعي (الطب العضوي) وللعلوم الإنسانية (طبيعة النفس البشرية)، بحيث لم يكن من السهل "ترسيم" الحدود الفاصلة بين المجالين والعالمين.

ولكن محاولات تحويل هذا النوع الحساس ذي الطبيعة المركّبة إلى "علم" بالمعنى الحاسم لم تتوقف، وفي تقديري فإن هذا الكتاب يمثل خطوة لافتة في هذا الاتجاه فهو يؤشر إلى مثل هذا التطور الجديد في الطب النفسي الحديث ويغطي جوانب مهمة منه. وهي جوانب أترك للاختصاصيين في الموضوع تقويمها والحكم على مدى الأصالة والتجديد فيها. وذلك بُعد آخر في حياتنا العلمية والثقافية ما زال بحاجة إلى اهتمام وتطوير. فالمشكلة ليست في قلة ما ينشر فحسب، وإنما بدرجة أخطر، في ندرة ما يكتب من نقد موضوعي وتقويم منصف لما ينشر على قلته.

فثمة نوعان من الضياع تتعرض له الجهود والتجارب العلمية في مجتمعاتنا.

النوع الأول الذي ذكرناه والمتعلق بعزوف أصحاب تلك الجهود والتجارب عن تسجيلها وتوثيقها.

أما النوع الثاني الذي لا يقل خطورة فهو تقصير أصحاب الاختصاص والاهتمام في نقد وتقويم ما ينشر من تلك الجهود والتجارب التي تصبح بمثابة الصدى الضائع الذي لا يجد صوتاً يحاوره ويتفاعل معه تأييداً أو تصحيحاً أو نقداً، فيبقى على رفوف المكتبات. ولا يمكن للتقدم العلمي والفكري أن يتحقق في الواقع إلا بتحقق هاتين العمليتين معاً: ممارسة التأليف ثم ممارسة النقد لهذا التأليف. ولعل المختصين في هذا الموضوع الطبي والإنساني الحساس يجدون في هذا الجهد المتميز للدكتور علي مطر وزميلته الكاتبة عالمة بسيسو، ما يفتح المجال لنقاش علمي حي ومثير للمزيد من التفكير والبحث في آخر مجال من مجالات الطب التي ما تزال مستعصية على التشخيص والإثبات المختبري الحاسم لكونها تتعلق بالخفايا النفسية للكائن البشري، هذا الكائن "الذي حارت البرية فيه" حسب تعبير أبي العلاء المعري.. وما زال مثار حيرة كبرى رغم تقدم العلوم والعلوم الطبية على وجه الخصوص.. غير أن كيفية النظرة إلى مشكلات الإنسان تتغير وتتطور مع ذلك. ومع تغير النظرة ينفتح دائماً مجال جديد لمقاربة المشكلة. وذلك هو رهان البحث العلمي والتقدم العلمي في ميادين الحياة كافة.

* * *

وأخيراً، وإذا جاز لي الافصاح عن جانب شخصي في هذه التقدمة.

- طالما ان البوح النفسي والفكري ليس بعيداً عن موضوع الكتاب- فقد حلمت منذ وقت مبكر في شبابي وفي حياتي العلمية أن أكون في جامعة ألتقي فيها بمختلف الاختصاصيين في العلوم الطبيعية والإنسانية بحيث أستقي من كل أستاذ مختص خلاصة علمه وحصيلة تجاربه، وعلى الأخص آخر المكتشفات والتطورات العلمية في حقل اختصاصه.. وذلك لكي أدمج مختلف هذه المعارف العلمية والإنسانية وأمزجها في رؤية فكرية شاملة لحقيقة الإنسان والكون والعصر.. حيث كان التطلع إلى تحقيق مثل هذه الرؤية الشاملة طموحي الفكري والشخصي الأكبر الذي غطى ويغطي وسيغطي على كل طموح سياسي أو إداري أو مادي آخر. وهي مسالة مازلت أجد صعوبة بالغة في إقناع الآخرين - من أبناء مجتمعي - بها والتكيف معهم بشأنها لأنها فيما يبدو ليست داخلة في "سلم القيم" لديهم... للأسف!

بل إني أجد الصعوبة ذاتها في إقناع زملائي الأساتذة والاختصاصيين الجامعيين.. الباحثين عن أشياء وعن مطامح أخرى.. بأن مطمحي ليس من مطامحهم..!

وربما نحتكم في نهاية المطاف إلى الطب النفسي، أنا.. وهم، لنرى من منا يحتاج إلى إعادة التكيف النفسي وتصحيح النظرة حسب مقتضيات هذا العصر ومتطلباته!!

والمهم أن أملي في أن أكون بجامعة قد تحقق.. ولكن ماذا عن بقية الحلم والأمل وعن هدفي الأخير في عالم الفكر؟

لقد تزاملت مع كثير من الأساتذة الجامعيين والمختصين.. وكنت أتطلع بشوق إلى الاستفادة من علمهم في ميدان اختصاصهم.. وآخر تطورات ذلك العلم..

فماذا سمعت؟

لم أسمع من غالبيتهم العظمى غير الشكوى من تأخر الترقية في الدرجة أو في المنصب أو في المرتب والامتيازات المادية..

ولم أسمع منهم غير وشوشات "التآمر" و"الإيقاع" ببعضهم البعض أو ضد الإدارة الجامعية في سباق التنافس المحموم من أجل "الوصول" وتحقيق الغايات الشخصية المستعجلة.. ولتذهب مصلحة الطلاب والجامعة والعلم إلى أي مكان آخر..

ونادراً ما جلست مع زملاء التعليم و"البحث" الجامعي فتحدثنا في تطورات المعرفة العلمية وأبعادها الفكرية..

وبل إن مثل هذه الجلسات من الندرة طوال سنوات بحيث يمكن عدها على أصابع اليد الواحده!

غير أني - وأنا أقرأ مخطوطة هذا الكتاب- شعرت بنشوة قديمة تتجدد.. وكنت ظننتها لن تعود.. فهذا زميل جامعي يضع حصيلة تجاربه الاختصاصية في سجل موثق ويقول لنا هذه هي محصلتي العلمية ولكم أن تستنتجوا من مواقعكم العلمية والفكرية ما ترون..

وليس غريباً أن يساعد المشتغلون بالطب "النفسي" الآخرين على استعادة أحلامهم..! وهذا ما فعله كتاب زميلي الدكتور علي مطر ببقايا حلمي "المكبوت"..

ولحسن الحظ فإن مؤشرات علمية وتأليفية أخرى في حياتنا الجامعية بدأت بالظهور مؤخراً -على قلتها- لتبشر بأن نفراً من أساتذتنا الجامعيين بدأوا بالعودة فعلاً إلى دورهم الحقيقي.. وبأنه لابد من "صنعاء المعرفة "وإن طال السفر..

وأياً كان الأمر فإني أضع هذا "الاعتراف" النفسي الشخصي أمام القراء في بداية هذا الكتاب كي يتهيئوا لاعترافات أخطر وأكثر تعقيداً في فصوله التالية، لأناس يستحقون منا كل تفهم وتعاطف.

ولا أدري إن كان الزميل المؤلف قادراً على "شفائي" من مشكلتي المذكورة أعلاه علماً بأنها ليست "عضوية".. وإن يكن صدور كتابه هذا قد أسهم في التخفيف عليّ من عبئها.

ولكن الذي أدعوه إليه بقوة هو أن يشرع في تأليف كتاب جديد آخر، بعد كتابه الشائق هذا، يتناول بالتحليل والتشريح جذور وأسباب "التخلف النفسي والعقلي" لدى معظم الأساتذة الجامعيين العرب..

ليس هؤلاء فحسب..

بل غالبية المثقفين العرب.. الذين أعتقد أن معظمهم بحاجة إلى تحليل سريري.. إلى معالجة "عضوية" في... المخ...!

هل يمثل كلامي هذا "عقدة" أخرى من "عقد" الجو العلمي والثقافي العربي؟

خير لكم أن تنتقلوا إلى فصول الكتاب وما يعالجه من "عقد" أخرى.. قد لا تكون بعيدة -على كل حال- عن "عقدتنا" القومية والفكرية والحضارية الشاملة!

...وهل رأيتم أخيراً أين تذهب "أفكار" الإنسان واعترافاته عندما يبدأ في "التعاطي "مع الأطباء النفسانيين ومؤلفاتهم وأبحاثهم؟

وقاكم الله نتائج هذه "التجربة"..

غير أن القراءة عنها أفضل وسيلة لعدم الوقوع فيها..

ومن هذه الزاوية "الوقائية" و"الاحترازية" أدعو إلى قراءة هذا الكتاب المفيد والشائق!

أ.د. محمد جابر الأنصاري

البحرين ١٩٩٥/٥/١٧م

مقدمة

إن للأمراض النفسية، كغيرها من الأمراض "العضوية" الأخرى، أساسا عضويا مرجعه المخ الذي ينظم وظائف جميع الأعضاء في الجسم. ومن هذا المنطلق للأساس العضوي للأمراض النفسية، يأتي هذا الكتاب الذي بين يديك، عزيزنا القارىء، ليلقي الضوء على خمسة من الأمراض النفسية الشائعة، هي الفصام والاكتئاب والقلق والرهاب والوسواس القهري، من خلال استعراض نماذج من واقع الممارسة الطبية لأشخاص يعيشون بيننا عانوا من هذه الأمراض، وعرض موجز لخلفية كل مرض وطبيعته.

ويهدف الكتاب في الأساس إلى إزالة الوصمة التي لصقت بالأمراض النفسية والتي نتجت عن سوء فهم الناس لها واعتقادهم أنها ناتجة عن مس من الشيطان أو الجن، ليعيدها إلى عائلتها التي تضم الأمراض العضوية الأخرى. وبهذا يمكننا النظر إلى المرضى الذين يعانون من الأمراض النفسية المختلفة على أنهم أناس عاديون يعيشون بيننا شاء قدرهم أن يصابوا بأحد هذه الأمراض، تماما كما ابتلي غيرهم بمرض البول السكري أو ارتفاع ضغط الدم أو أمراض القلب أو الكلى أو أي من الأمراض العضوية الأخرى. ومن هنا يتحتم علينا تقبلهم كغيرهم من المرضى وفهم أمراضهم وتفهم معاناتهم.

ولازال الكثير من الناس يعتقد أن الأمراض النفسية ما هي إلا نتاج لنمط الحياة العصرية التي نعيشها والضغوط الاجتماعية

والاقتصادية التي نعاني منها مع سرعة ايقاع هذه الحياة التي نحياها. وفي الماضي أرجع الإنسان هذه الأمراض إلى قوى طبيعية خارجة عن إرادته. فمرة ألقى اللوم على الآلهة المختلفة التي أنزلت عليه اللعنة عقابا لما اقترفه من معاصٍ ضدها، وأخرى على الشيطان والجن التي أصابته بمس منها. واختلف تأويل الإنسان لهذه الأمراض في العصور المتعاقبة واعتبرها مختلفة عن غيرها من أمراض عرّفها بأنها عضوية لاستطاعته إرجاعها إلى أحد أعضاء الجسم المختلفة التي استطاع الكشف عليها وفحصها بما كان متوفرا لديه من مختلف وسائل الفحص لمعرفة ما طرأ عليها من خلل. إلا أن ذلك كان مستعصيا على الأمراض النفسية لبعض الوقت لاختلاف ما يطرأ على المخ، وهو مصدر الأمراض النفسية، من تغيرات لكونها كيماوية لا تؤدي إلى تغير في شكله أو تركيبه إلا بعد فترة قد تطول لدى كثير من المرضى المصابين بالأمراض النفسية. ولهذا صنفها في فئة أخرى "غير عضوية" وأرجعها إلى "النفس"، ومن هنا جاءت تسميتها بالأمراض النفسية. إلا أن التقدم الذي طرأ في مجال العلوم الطبية المختلفة من تشريحية ووظيفية وتشخيصية ودوائية أدى إلى معرفة حقيقة هذه الأمراض.

ومن المفارقات التاريخية المتعلقة بالأمراض النفسية أن "أبوقراط"، وهو الملقب بأبي الطب، قام قبل أكثر من ألفين وأربعمائة عام بإرجاع الأمراض النفسية إلى المخ، معتبرا أن سلوك الإنسان يحكمه معدل الأخلاط الأربعة في الجسم، وهي الدم والبلغم وعصارتا الصفراء والسوداء، وأن الإصابة بالأمراض النفسية مرجعها اختلال هذا المعدل في الجسم. إلا أن هذه النظرة العلمية لأبوقراط تلاشت في خضم ما شاع بعده من ممارسات اقتربت كثيرا من الشعوذة. ويرجع الفضل في إحياء هذه النظرة

مرة أخرى إلى الأطباء العرب المسلمين الذين تبنوا آراء "أبوقراط" وبنوا عليها من تجاربهم وخبراتهم، وبددوا الظلمات التي كانت سائدة في أوروبا في القرون الوسطى. ويبرز من هؤلاء كثير من المشاهير أمثال الكندي والرازي وابن سينا الذين بنوا أسس التشخيص والعلاج النفسي الحديث كالعلاج السلوكي وعلم النفس التجريبي والطب النفسجسمي (السيكوسوماتيك) ووصفوا الجهاز العصبي اللاإرادي والعقل الباطن وتأثير العوامل الوراثية والبيئية. وجاء ذلك منذ مئات من السنين قبل أن تنسب إلى أسماء اشتهرت فيما بعد في عالم الطب النفسي الحديث مثل بافلوف ويونغ وفرويد وغيرهم. إلا أن أعمال هؤلاء ونظرياتهم مهدت الطريق أمام الطب النفسي كي يعود إلى تبني النظرة العلمية المبنية على التجارب والأدلة العلمية التي ترى العلاقة بين الأمراض النفسية ومسبباتها العضوية.

وتؤكد المعلومات الطبية المتوفرة أن أساس الأمراض النفسية هو خلل يطرأ على وظيفة ما يعرف بالمرسلات العصبية. وهي مركبات كيماوية مختلفة تقوم بنقل الإشارات العصبية بين الخلايا العصبية داخل المخ وتمكن الإنسان من الرؤية والسمع والشم والقيام بالوظائف الحيوية الأخرى التي يتميز بها. ولا يختلف شعور الإنسان بالأحاسيس والعواطف المختلفة عن الحواس الخمس المعروفة والوظائف الأخرى في الجسم، فهي أيضا تنتقل داخل الجهاز العصبي كإشارات عصبية فيحس بها الإنسان ويعايشها.

وتنتج الأمراض النفسية بسبب خلل يطرأ على عمل هذه المرسلات العصبية، فتنتقل إشارات خاطئة داخل المخ يتولد عنها رؤية الإنسان أو سمعه أو شمه أو لمسه لأشياء غير موجودة في بيئته. ولنفس السبب يحس الإنسان بعواطف ومشاعر واعتقادات لا تمت للواقع بصلة، وهذا ما يميز أعراض الأمراض النفسية

المختلفة. وتختفي هذه الأعراض ويتماثل المريض النفسي للشفاء بتعاطي الأدوية النفسية المناسبة التي تعمل على إصلاح الخلل الذي طرأ على وظيفة المرسلات العصبية وتسبب في الإصابة بالأمراض النفسية.

وفي ضوء هذا الفهم العلمي لطبيعة الأمراض النفسية وأساسها، يهدف هذا الكتاب إلى زيادة الوعي والتفهم لهذه الأمراض في اطار علمي صحيح لكي نتمكن من تقبلها ومساعدة من يعانون منها وتقديم الدعم اللازم لهم لتأهيلهم وإرجاعهم إلى المجتمع ليلعبوا دورهم المطلوب في تطويره وتنميته.

المؤلفان

أبريل ١٩٩٥

الفصــــل الأول

(١)

الاغتــــراب

كان لقاؤنا الأول صدفة، في قاعة الانتظار الباردة في إحدى مستشفيات لندن، في العاشر من شهر يونيو عام ١٩٨٥م. في ركن القاعة وعلى مقعدين متجاورين جلست فتاة تبدو في العقد الثالث من العمر وبجانبها سيدة مسنة تتشح بالسواد كانت تجول بعينيها بين الوجوه المنتشرة في القاعة وكأنها تبحث عن نظرة تشعرها بالاطمئنان، عن وجه تظن أنها تعرفه بين الوجوه المشربة باللون الأبيض حتى الاصفرار والعيون الملونة كأتيال أطفال الحي في بلدها.

وإذ كنت بدوري قد سئمت ضباب سماء لندن وبرودة أعصاب أهلها سرحت عيناي في جولة تبحث بين الوجوه عن دفء شمس بلادي في رمش أسود أو على شفة سمراء. والتقت نظراتنا وانتقلت كي أجلس قرب السيدة المتشحة بالسواد، فرحبت بي وعرفتني بنفسها وبابنتها فوزية. والفتاة تتفحصني بنظرات سطحية زائفة وكأنها تبحث عن شيء في ملامح وجهي أو بين مسام جسدي ثم تتجاوزني نظراتها إلى فراغ لا نهاية له.

وجاءت الممرضة بثوبها الأبيض وانحنت نحو السيدة تحدثها بصوت منخفض ثم أمسكت بذراع فوزية وسارت بها نحو أحد الأبواب الموصدة. وبدأ التساؤل على وجهي وقلت للسيدة بكثير من الدهشة:

- ألن ترافقي ابنتك؟

- قالت: بل سأنتظرها هنا حتى تنتهي من جلسة العلاج.

- قلت: تبدو لي في صحة جيدة، فوجهها لا يحمل علامات المرض.

قالت ومسحة من الحزن تكسو وجهها وهي تشير بإصبعها إلى رأسها:

- مريضة هنا.

- قلت: تبدو طبيعية كغيرها من الفتيات، سوى تلك النظرة الغارقة في الهدوء واللامبالاة ربما خجلاً أو ريبة عند لقاء الغرباء.

- قالت: بإذنه تعالى ستعود فوزية إلى طبيعتها الأولى يوما بعد آخر بالمداومة على العلاج والدواء. فالأمل بشفائها هو ما يبقي في جسدي الواهي بعض العزيمة والقوة ويخفف جبال الهم التي تسكن قلبي.

- قلت: فليكن إيمانك بالله كبيرا... أخبريني يا خالة هل أصيبت ابنتك بمرض نفسي كنتيجة لمرض عضوي.

- قالت: لا أعرف التعابير الطبية يا ابنتي لكن الطبيب قال إنها مصابة بانفصام الشخصية حين دخلت فوزية المستشفى للعلاج للمرة الأولى في خريف عام ١٩٨٧.

سكتت المرأة برهة من الزمن وكأنها تستعيد شريطا من الأحزان عاشت ورددت أحداثه بأيامه ولحظاته مرة بعد مرة، ونظرت إليّ لتستوحي من صمتي واهتمامي عزيمة كي تبوح لي بهمومها.. ثم أردفت قائلة:

- كبرت فوزية في جو عائلي يسوده ما يسود الحياة من فرح وألم. كانت منذ طفولتها وخلال سنوات دراستها الفتاة الهادئة السعيدة بانزوائها ووحدتها، لا تأبه بأن تقيم علاقات صداقة مع زميلاتها في المدرسة والحي. ولم أعط لتصرف فوزية اهتماما، فطباعها كثيرة الشبه بطباع والدها "ومن شابه أباه فما ظلم.". وزوجي رجل قانع لا يطلب الكثير في الحياة لأنه قانع بأنها ظلمته.. وقد تمر أيام يلازم البيت ولا يخرج منه دون أن يحدث أحدا أو يطلب طلبا ثم يثور لأتفه الأسباب فينقلب البيت بصراخه رأسا على عقب. وكانت فوزية شديدة التعلق بوالدها لا تخرج من عزلتها إلا لتتحدث معه أو تشاركه صمته، بينما كانت تتجاهل عمدا تقربي منها، فترفض مجالستي وتنزوي إلى غرفتها وهي ترمقني بنظرات قاسية تحمل الكثير من الكراهية والاتهام. وتجاهلت تصرفاتها تلك، فالأم تتحمل الكثير من أجل أبنائها، والفتاة في سن المراهقة تمر بكثير من الهواجس والأفكار.

ووصلت فوزية إلى نهاية المرحلة الثانوية بعد جهد وتعب، لكنها فشلت في نيل الشهادة سنتين متتاليتين، عندئذ قرر والدها إرسالها إلى لندن كي تكمل تعليمها الثانوي ثم تلتحق بعد ذلك

بالجامعة تحت إشراف أخيها عماد الذي يعمل ويسكن في لندن منذ أن تزوج هنا من زميلة له في الجامعة.

فرحت فوزية بقرار سفرها إلى لندن فرحا كبيرا تحول مع اقتراب موعد سفرها إلى شعور بالحزن والاكتئاب، حتى باتت لا تغادر غرفتها طيلة النهار، ترفض أن تحدثني فتبقى وحدها تتحدث مع نفسها في خلوتها.

وقبل موعد سفرها بيوم واحد قرعت باب غرفتها بقوة ورجوتها أن تخرج كي تساعدني في تجهيز ما يلزمها في غربتها، ففتحت فوزية الباب بقوة فتراجعت إلى الوراء.. إذ بدا لي وجهها غريبا وكأنه وجه شبح تحدق عيناه في الأفق البعيد.

وصرخت بأعلى صوتها:

- تبدين شديدة الفرح بسفري، تريدين إبعادي كما أبعدت عماد من قبلي، كي يبقى البيت لك وحدك، ويبقى أبي لك وحدك.. أم أنك تخططين لابعاده أيضا أو.. ربما قتله، لقد جاءني صوتها وحدثني عنك.. طويلا طويلا.

- قلت بفزع: من حدثك يا ابنتي وأنت في الغرفة وحدك..

- قالت: صوتها.. صوت فاطمة، أختي التي قتلتها بيديك وهي طفلة ضعيفة لا تستطيع الدفاع عن نفسها، لكنني أستطيع الدفاع عن نفسي وسأهرب منك ومن البيت خوفا من أن ألقى مصير أختي...

وصرختُ قائلة: فوزية ماذا تقولين؟ فاطمة أختك، توفيت في مرض أصابها وهي في الشهر السادس من عمرها... هل جننت يا ابنتي هل جننت..؟

وهرعت فوزية إلى الصالة وأمسكت بزهرية رمت بها مرآة على الحائط، فتملكني الخوف وهرعت إلى غرفتي وصوت الزجاج يملأ أذني.

وفي اليوم التالي حضنتني فوزية وهي تودعني والدموع تغطي وجهها، فتناسيت لحظات ثورتها وحضنتها إلى قلبي الملتاع لفراقها. ومضت أشهر كنت على اتصال دائم بها وبأخيها عماد حتى اطمأن قلبي بأن كل شيء يسير على ما يرام. وفي صباح يوم باكر اتصل عماد والقلق باد في نبرات صوته عبر الهاتف قائلا:

- لا أريدك أن تضطربي أو تجزعي ولكن وجب عليّ إخبارك بأنني أدخلت فوزية للمستشفى.

وقلت بلهفة - أخبرني ماذا حدث لفوزية.. هل مرضت ، هل أصابها حادث؟

عماد - لا، قلت لك أنه ليس في الأمر خطورة.. وقد أكد لي ذلك طبيب المدرسة، لكن فوزية تشكو لمرضة المدرسة بأن آلاما حادة تصيبها فقررنا إدخالها المستشفى لإجراء بعض الفحوصات، أرجو أن تخبري الوالد بطريقتك، فأنت تعلمين مدى حبه وتعلقه بفوزية.

ركبت أول طائرة تقلني إلى لندن حيث كان عماد بانتظاري في

المطار. وفي الطريق إلى المدينة أخذ عماد يروي بعض تصرفات فوزية التي حجبها عنا، عن تغيبها عن المدرسة وعن بيت الطالبات أيضا لأيام متتالية ثم العودة دون مبرر عن مكان وجودها والانزواء في غرفتها بحجة أن آلاما حادة تصيب جسدها، وفي نفس الوقت ترفض رؤية الطبيب أو ممرضة المدرسة.

قال في سياق حديثه: لقد تسترت عليها في بادئ الأمر وأخبرت إدارة المدرسة بأنها كانت تمضي أيام غيابها في بيتي.. وكنت حين أواجهها بتلك التصرفات الشاذة، تستغرب قلقي عليها وتصر أن زوجتي جولي تحرضني ضدها لأنها تكرهها.

وذهبت لزيارة فوزية برفقة عماد.. فرأيتها مستلقية بقميص نومها الوردي على أحد الأسرة في عنبر ١١ في المستشفى وقد هزل جسدها واصفرت بشرتها، وما أن شاهدتني حتى اتسعت حدقات عينيها وأشاحت بوجهها عني وهي تدير لنا ظهرها بحركة بطيئة متكاسلة. وبدت فوزية كتمثال من الشمع لا يرمش له جفن، رغم توسلاتي، وعبارات الشوق واللهفة التي كانت تتزاحم على شفتي. وهرعت إلى الطبيب وعماد يمسك بذراعي، فهدأني الطبيب قائلا:

- لا بد أن عماد قد أخبرك أن فوزية تعاني من مرض نفسي.. وفي المراحل الأولى للعلاج يكون المريض تحت تأثير مخدر قوي.. ولذلك قابلتك ببرود لأنها لا تدري ما يدور حولها.

وشهقت في صمت فتلك كانت أول مرة أسمع بها عن مرض يسمى "المرض النفسي" وابتسم الطبيب وكأنه يقرأ أفكاري وأكمل حديثه قائلا:

- تستغربين بقاء شخص معافى وفي صحة عضوية سليمة بالمستشفى... لكن المرض النفسي يا سيدتي يكون في بعض الأحيان أكثر خطورة على المريض نفسه وعلى من حوله... ولذا يجب إبقاء المريض النفسي في المستشفى الخاص لتلك الأمراض كي يستمر العلاج تحت إشراف طبي سليم حتى يعود المريض إلى حالة تسمح له عندئذ بالخروج.

- قلت: ما أسباب هذا المرض يا دكتور، إن ابنتي فوزية فتاة طبيعية كغيرها من الفتيات.

- الطبيب: لا تغالطي نفسك يا سيدتي، فجذور المرض النفسي كامنة في أعماق تكوين المريض منذ الطفولة ويكون ذلك لعوامل عدة منها العوامل الوراثية و الجسمانية والاجتماعية... وقد ظهرت أعراضه أكثر وضوحا بعد تعرضها لظروف جديدة وحياة اجتماعية مغايرة لما اعتادت عليه ابنتك، وتواترت جميع هذه العوامل لتزيد من شعورها بالخوف والريبة وذلك يرتبط ارتباطا وثيقا بتجاربها بالفشل والاحباط، فتهرب بالانزواء ويتملكها إحساس بعذاب النفس والضمير يتحول إلى اكتئاب أو قلق ظاهر أو مُقَنّع. ومن جراء ما ذكرت وكرد طبيعي للصراع الدائر في داخلها، يصاب جسدها بالوهن والضعف وتتملكها آلام حادة لا تستطيع حصر موضعها. وبتمارضها تبني سورا منيعا حولها كي تحمي نفسها من إيذاء الآخرين.

- قلت: أيصل بها المرض لإيذاء نفسها أو إيذاء من حولها؟

- الطبيب: نادرا ما يحصل هذا في حالة مرض كحالة فوزية، لكن قد تكون ثورتها عاصفة فتحطم كل ما يقع تحت يديها انتقاما من إنسان يصور لها خيالها أنه يكرهها، فالثورة التي تهز كيانها

وتدفعها للقيام بأعمال شاذة هي وسيلتها لرد الأذى عن نفسها.

- قلت: وهل ستطول فترة بقائها في المستشفى يا دكتور..؟

- الطبيب: لا أستطيع أن أعطيك جوابا شافيا يا سيدتي. إن مداومة فوزية على تعاطي العلاج سيحسن من حالتها تدريجيا وذلك يعتمد على مدى تجاوبها في جلسات العلاج.

ثم أردف الطبيب:

- بما أن عماد يعيش في بريطانيا إذ يسكن في لندن، بإمكانه الاطمئنان عليها وزيارتها دائما، لهذا فلا ضرورة لبقائك قربها طيلة فترة علاجها.

قلت للطبيب والحزن يعتصر قلبي:

- أتطلب مني بلطف أن أبتعد عن ابنتي كي تتحسن حالها؟

ودارت عني دمعة انهمرت على خدها وقالت بألم وحزن:

- تصوري يا ابنتي أن الطبيب حاول إبعادي عن ابنتي فوزية كي تتحسن حالتها النفسية.. ماذا فعلت بدنياي كي أستحق كراهية ابنتي ورفضها لي؟

وتركت السيدة وحدها وذهبت كي أحضر بعض العصير. فأخذت المرأة كوب العصير من يدي وروت حلقها برشفة طويلة التفتت إليّ قائلة:

- شكرا يا ابنتي... فقد كنت بحاجة لكوب من العصير بعد أن تحول الحزن في حلقي إلى صخرة لا تزيلها كل مياه نهر التايمز.

ثم أردفت قائلة:

- لقد أثقلت عليك بهمومي وسرقت هنيهات من وقتك، والوقت في هذه البلاد توزن لحظاته بالذهب.

- قلت: لا عليك يا خالة فوقتي الأثمن هو ذلك الوقت الذي أمضيه مع الناس ومشاكلهم، فلن أتركك وحدك حتى تعود الممرضة إليك بفوزية.

وسكتت السيدة برهة وكأنها تسترجع الأحداث ثم قالت:

- وهكذا تركتها في المستشفى تحت رعاية أخيها عماد وعدت إلى بلدي بعد إصرار زوجي بضرورة عودتي لشعوره بالوحدة لغياب جميع أفراد العائلة.

ومرت الأشهر الأولى وفوزية تحت العلاج المباشر في المستشفى حتى تحسنت حالتها وسمح لها طبيبها بالانتقال إلى بيت أخيها على أن تداوم على الدواء. وهنا بدأت مشاكل عماد مع فوزية.. فترفض المداومة على الدواء يوما أو تتهم جولي زوجته بأنها تحاول دس السم لها في الطعام.. ثم تخرج في الصباح ولا تعود إلا في وقت متأخر من الليل... وهكذا أعادها عماد إلى المستشفى كي تمضي بقية فترة العلاج تحت إشراف الطبيب نفسه. وبقيت فوزية في المستشفى حتى شفيت تماما أو هكذا ظن طبيبها...

وألحقها أخيها بمدرسة داخلية قريبة كي تواصل تعليمها الذي انقطعت عنه.

ومضى أكثر من عام على ترك فوزية المستشفى وكانت تبدو سعيدة في مدرستها حتى أنها كانت تتجنب الحضور إلى بلدها في إجازة الصيف وكأنها تتهرب من مواجهة شيء ما... وهكذا كنت أصاحب زوجي كي نمضي فترة الصيف مع فوزية وعماد... فتفرح بوالدها وتلتصق به ولا تتركه يغيب عن نظرها لحظة واحدة. قال لها والدها مرة:

- متى ستعودين إلى الوطن يا ابنتي، فالأرض اشتاقت لأبنائها وأريدك أن تكوني بقربي إن حدث أي مكروه.

وصرخت فوزية بعنف وهي ترد عليه:

- لا قدر الله يا أبي، لن يحدث لك أي مكروه أبدا، ماذا سيكون مصيري من بعدك؟

وفي شهر مارس من هذا العام سقط زوجي مريضا بالقلب، ولم يمهله المرض طويلا حتى يرى ولديه عماد وفوزية اللذين هرعا بالحضور إلى البلاد، لكن عماد حرص على إخفاء خبر وفاة والده عن فوزية معللا سرعة سفرهما بمرض أصابه فقط.

ومرت أيام الحداد وفوزية قابعة في غرفتها يكتنفها هدوء غريب، كأن الحزن لم يمس قلبها حتى أنني لم أر دمعة واحدة في مقلتيها حزنا على والدها وقد ظننت أن دموعها لن تجف أبدا حزنا على فراقه. بل كانت تصوب نظراتها المليئة بالشك والريبة إلى

وجوه نساء العائلة الباكيات. وفي الليل بعد أن يخلو البيت ويعود الهدوء، كانت تخرج من غرفتها وتدور في أرجاء البيت المظلم تحدث نفسها، ثم والدها بكلمات مبهمة متقطعة لم أستطع أن ألتقط منها جملة واحدة. وبعد انقضاء أسابيع على وفاة زوجي، قرر عماد العودة إلى بيته وعمله، وعندما علمت فوزية بقرب سفر أخيها عماد، ثارت وأخذت تصرخ وتولول وهي تدور في أرجاء البيت ثم هرعت إلى غرفتي وأمسكت ببعض ثيابي تمزقها إربا إربا وكأنها تمزق جسدي وهي تتفوه بكلمات مبهمة غريبة إستطعنا فهم بعضها... قالت إنها لن تسمح بذهاب عماد حتى يرجع لها والدها، فوالدها لم يمت.. لا يمكن أن يتركها وحدها لي ولأقاربي كي أتخلص منها كما تخلصت من أختها فاطمة ومن والدها.

وهرع عماد إليها، يحتوي ثورتها بين ذراعيه وهي ترتجف وتهتز بقوة، وصرخ عماد قائلا: أحضري دواءها بسرعة فلن أستطيع السيطرة على جسدها الثائر طويلا. أسرعي بالدواء، لقد عاودها المرض ولكن أكثر حدة من المرة السابقة.

وسافرت فوزية مع أخيها عماد ودخلت المستشفى فور وصولها، ثم لحقت بهما بعد أن أنهيت مدة الحداد. والآن بعد أن تحسنت حالتها سمح لها الطبيب بالخروج من المستشفى على أن يرافقها أحدنا لمواصلة جلسات العلاج مرتين في الأسبوع.

- قلت: سأطلب مساعدتك في أمر يا خالة... أود أن أجتمع بفوزية كي يتصل الحديث بيننا، فمشاكل الناس همي وعملي ويهمني أن أعرف بعض ما يعتمل في أعماق فوزية من رفض وكراهية للناس حولها.

- قالت: هذا مناي يا ابنتي، ربما استطعت إخراجها من صمتها وانطوائها بشرط أن ترضى هي بمقابلتك.

والتقيت بفوزية مرة بعد أخرى، كانت خلال لقائنا تبدو ساهمة صامتة تنظر إلى وجهي أثناء محادثتها ولكن دون أن تركز ببصرها على وجهي، بل تتجاوزه إلى الأفق البعيد. كنت أتحدث اليها بأمور عامة أو أروي لها عن حالة مشابهة لحالتها معظمها من الخيال، ثم أوجه إليها أسئلة عن علاقاتها بأبيها، وأخيها عماد.. ثم عن علاقتها بأمها وزوجة أخيها.. وكانت فوزية تجيب عن أسئلتي بجمل متكاملة بها الكثير من الشطط والخيال أو بكلمات مشوشة لا ترابط أو معنى لها. وأثناء حديثها كانت الرعشة تتملك جسدها وتزداد كلما ازداد انفعالها، فتبدأ أنامل يديها ترتعش بحركة لا شعورية. تحدثت فوزية أثناء لقاءاتنا المتكررة عن تعلقها بوالدها رغم قسوته عليها وعلى أمها وعن موته المفاجئ الذي نفذه حسب رأيها أقرباؤه بالتعاون مع أمها، لكنها تعتقد أنه لم يمت فهي تسمع صوته يحدثها كل ليلة ويطمئنها بأنه لن يتركها وحدها. ثم أعادتني معها إلى طفولتها وشبابها وكراهية أمها لها والتخطيط للخلاص منها كما تخلصت من شقيقتها فاطمة. ثم أخبرتني وجسدها يهتز بعنف كيف كانت أمها تؤنبها وتوبخها وهي تقارنها بابنة خالها الجميلة المتفوقة في دراستها وكيف كانت فتيات المدرسة والحي يتغامزن عليها ويبتعدن عن صحبتها ويتآمرن عليها. كانت فوزية تتحدث بقناعة تامة عن أحداث تستحوذ على عقلها وتتحكم بتصرفاتها مع الآخرين.

قالت: كنت أخلو بنفسي في ظلمة الليل فأسترسل في البكاء، أغسل بدموعي خوفي وريبتي من كراهية وتلصص أهلي

وزميلاتي علي، وتتملكني الأوجاع فأتلوى من الألم وفي غمرة آلامي أسمع صوتا يحدثني، أو جملة أصوات تحذرني ممن يودون التخلص مني بقتلي بالسم أو إيذائي بالسحر والأحجبة. وكانت الأصوات تطلب مني أن أقوم بأعمال فأطيعها، فأثور وأصرخ وأحطم كل ما يقع تحت يدي وكأن من ينفذ تلك الأوامر شخصا آخر غيري... وكان يأمرني الصوت بالخروج لملاقاته فأسرع اليه فيبث أهلي العيون حولي، فتتلصص الصخور علي، وتتبعني الأشجار كظلي فتمتد أغصانها إلى عنقي كي تنفذ الأمر بقتلي، فأهرع إلى ظلام غرفتي كي أحتمي بحوائطها من غدر أهلي.

ذهبت لوداع فوزية وأمها قبل عودتي إلى البلاد، فأعطيتها قصاصة ورق بها عنواني ورجوتها أن تتصل بي فور عودتها إلى الوطن. فأخذت الورقة بين أناملها المرتجفة وقالت ونظرات عينيها تتجاوز وجهي:

- أحقا تودين رؤيتي..؟

قلت : اتصلي بي فور عودتك، ونتقابل وحدنا كما يتقابل الأصدقاء.

فحضنتني فوزية وقبلتني قبلة الوداع وجسدها يهتز ارتجافا بين ذراعي.

ومضى عام على لقائي الأخير بفوزية ودوامة العمل والحياة تمتص دقائق يومي حتى وصلتني بطاقة صغيرة تدعوني لمقابلة أحد الأطباء في مستشفى الأمراض النفسية في البلاد. وعند لقائي

بادرني الطبيب بقوله: لدي مريضة اسمها فوزية دأبت على طلبك والسؤال عنك منذ دخولها المستشفى، لكن حالتها عندئذ لم تكن تسمح بالزيارة. والآن بدأت حالتها بالتحسن ورأيت أن ألبي طلبها بدعوتك لزيارتها.

- قلت بلهفة: فوزية هنا في المستشفى... ماذا حدث ومتى؟

- الطبيب: سأوجز لك ما حدث لفوزية لعلمي بمعرفتك بحالتها السابقة. تحسنت حالة فوزية في لندن وبدأت تزاول حياتها الطبيعية. وعندما مرضت الأم قررت فوزية بالاتفاق مع أخيها عماد أن تعود هي إلى البلاد كي ترعى أمها التي أقعدها المرض. وتحولت كراهية فوزية السابقة لأمها إلى حب ورعاية فائقة.. وبعد مدة شهر تقريبا أصيبت الأم بشلل جزئي ارتأت بعده العائلة نقلها إلى بيت للمسنين. كما ارتأت أن تنتقل فوزية للعيش عند خالها. وهنا بدأ المرض يعاود فوزية فيصور لها خيالها بأن خالها وزوجته يحاولان التخلص منها بنفس الأوهام والوساوس السابقة حتى عاودتها نفس الأعراض السابقة. وكانت في ثورتها تحطم ما تحطم أو تضرب أبناء خالها الصغار متوهمة بأن زوجة خالها تبعد أبناءها عنها وتحرضهم ضدها.

- قلت : أتسمح لي بمقابلتها؟

- الطبيب : لفترة قصيرة فقط، بعد جلسة العلاج اليومي.

وجلست وحدي بضع لحظات حسبتها دهرا، ودخلت فوزية بقميص نومها الأزرق ونظرات عينيها التي تتجاوز وجهي... فقفزت من مكاني واحتويتها بين ذراعي حتى أصابتني من جراء

ارتجاج جسدها الممتلئ رعشة كمس من كهرباء.

قالت وابتسامة باهتة تعلو وجهها الطفولي:

- أخيرا حضرت لرؤيتي... وقد ظننت أنك لن تتركيني وحدي، لأنك صديقتي.

-قلت: حقا، لم أعرف بوجودك في البلاد إلا منذ أيام فقط.

-قالت: هل علمت بما حدث لأمي المسكينة، لقد دسوا السم لها حتى مرضت، ووضعوا لي السم في الطعام كي يتخلصوا مني...

قلت: من دس لك السم في الطعام يا صديقتي؟

فوزية: خالي الشيطان الأكبر، لقد حذرتني الأصوات منه ومن سم زوجته، فهي حية رقطاء في ثوب ملاك أسود.

وانهمرت الدموع من عيني وأنا أحتوي فوزية بين ذراعي.. جسدا سليما.. وعقلا ينهشه السقم والمرض.

(٣)

الزائرة الغريبة

كان الوقت منتصف النهار والبيت ساكن هادئ بخلاف أصوات خافتة تنبعث من المطبخ حيث كانت سيدة البيت منهمكة في إعداد طاولة الطعام قبل عودة زوجها وأولادها. وفجأة دوى قرع متواصل على باب البيت مصحوبا برنين جرس متواصل، فهرعت سيدة البيت كي ترى بنفسها ذاك الزائر اللحوح المزعج. وعند الباب، وكان الخادم قد سبقها إليه- وقفت وفاء بقامتها المديدة، وشعرها الأسود المشعث باتقان، وزينتها الصارخة، وتقدمت بخطوات داخل البيت وهي تتلفت وراءها بهلع وخوف ثم صفقت خلفها باب البيت بقوة ورمت بنفسها على صدر سيدة البيت وهي تجهش بالبكاء وتردد خلال عبراتها:

- أرجوك لا تتركيني وحدي. فقد تخلى عني الآخرون، وجئت أبحث عندك عن أذن تسمع وصدر يحفظ السر. فلا توصدي أبوابك في وجه همومي وأسراري.

وتراجعت سيدة البيت إلى الوراء وقد بدا عليها بعض الحيرة والارتباك لظروف هذه الزيارة الغامضة المفاجئة، فعلاقتها بزائرتها لا تتعدى التحية والسلام حين تلتقي بها صدفة وهي بصحبة شقيقتها الكبرى "منى" التي كانت زميلة دراسة في حقبة تقارب ربع قرن من الزمن.

ودخلت سيدة البيت بزائرتها إلى غرفة الجلوس وهي تحيطها بذراعيها وتهون عليها... وطلبت من الخادم الذي وقف مسمّرا في مكانه الإسراع في إحضار فنجانين من القهوة. وجلست وفاء، وهكذا فعلت أيضا سيدة البيت في مقعد مقابل وهي تتأمل لباس زائرتها وزينتها الصارخة. وكانت وفاء ما تزال تكفكف دمعها ونظراتها منكسة إلى الأرض.

وفجأة صوّبت وفاء نظراتها إلى وجه مضيفتها وحملقت بها طويلا وهي تردد مرارا:

- لا أحد يصدقني... لا أحد يفهمني...

وردت عليها سيدة البيت في محاولة لتهدئة زائرتها:

- هوني عليك، ليس هناك ما يستوجب تحاملك على من حولك، فلكل منهم همومه ومشاكله.

- ولمن أفضي بهمومي إذا، والخوف يتملكني من البوح بها لأقرب الناس إلي؟ إلى "منى" صديقتك التي لا هم لها سوى عملها وزوجها وأولادها؟ وحتى لو أردت البوح لها بسري أو بما يعتمل في نفسي، فلسوف تسخر مني وتستخف بي وتتهمني بالكذب

والجنون. ولهذا جئتك لثقتي بأنك ستستمعين إليّ وتحافظين على سري كمحافظتي عليه بنفسي.

وشعرت سيدة البيت أنها أمام امرأة تعاني من كابوس مرعب وصل بها إلى حالة من السوداوية والبؤس، أو أن الأمر خطير ودقيق بالفعل كي تشعر تلك المرأة بهذا الكم الهائل من الخوف والضياع الذي يبدو في نظرات عينيها الزائغتين في فراغ الغرفة، وشرود عقلها في متاهات الخوف والحزن. فبادرتها المضيفة قائلة بهدوء وثقة:

- لا شيء يستدعي كل هذا الحزن والخوف يا وفاء، مهما كانت ظروف محنتك صعبة، فحلها يكمن في التعقل والروية وبالمكاشفة والحوار بين أطراف النزاع أو القضية، فعجلة الزمن يا ابنتي لا تتوقف عند المصائب والكوارث بل تسير كدقات الساعة الملتزمة، فتشرق الشمس شرقا مع كل صباح وتغيب غربا في كل مساء.

وانفجرت وفاء في قهقهة مفاجئة حتى اهتز جسدها النحيل وامتزجت ضحكتها الغريبة برنين الحلي المرصوص على صدرها وقالت بصوت طغى على ثورة جسدها واهتزازه:

- ما هذا التخريف والهبل؟ وما لي أنا بكوارث العالم ومصائبه وكل من في هذا العالم الذي تتحدثين عنه يعي مصيبتي ويخفيها عني ثم يتظاهر بأن كل شيء يسير سير النجوم والشمس والليل. حتى زوجي الذي عشت معه ما يقارب العقدين من الزمن تخلى عني هو الآخر وهانت عليه سنوات عمري التي أفنيتها من أجله وباعني... أجل باعني بثمن باهظ من أجل صفقة

مريبة تحول بعد إبرامها إلى رجل غريب، يجمعنا وجود الأولاد فقط في بيت واحد وتحت سقف واحد.

وسكتت وفاء لبرهة وأنفاسها تتلاحق وبعد أن وقفت فجأة، أخذت تجول بنظراتها في فراغ الغرفة وهي في شرود تام، وأنامل يدها اليسرى تداعب الأساور المتراصة في معصمها الأيمن. وشعرت سيدة البيت بحاجة ملحة للهروب من تلك الغرفة للابتعاد عن نظرات وفاء المبعثرة في الهواء، وقد شعرت فجأة بنواقيس الخطر تقرع حواسها بقوة وتنبهها إلى تصرف ضيفتها الغريب، فوقفت بغتة واتجهت نحو باب الصالة، وبلهجة آمرة صفعها صوت وفاء مزمجرا:

- إلى أين..؟

- سأطلب كوبين من عصير البرتقال الطازج، فقد شعرت فجأة بعطش غريب، فهل أطلب لك شيئا آخر؟

- لا بأس بكوب من العصير، أطلبي من الخادم إحضاره.

ثم دوت قهقهة عالية متقطعة... وأردفت وفاء بلهجة آمرة:

- إجلسي بعد أن تغلقي الباب خلفك.

وجلست المضيفة على مضض، وقد تملكها نفاد في الصبر والتصور، فحالة زائرتها تزداد غموضا لحظة بعد أخرى، فقد مضى من الوقت عشرون دقيقة أو يزيد وحديث زائرتها ما زال غامضا، غريبا كالألغاز والأحاجي. ونظرت سيدة البيت إلى عيني

زائرتها بنظرات مباشرة جريئة دون أن تتفوه بكلمة واحدة. فاضطربت وفاء وارتبكت من نظرات مضيفتها المصوبة نحوها وقالت بصوت بدا كالطلقات النارية الطائشة:

- لماذا تنظرين إليّ هكذا؟ أو تعلمين بالأمر يا ملعونة وتتظاهرين بالجهل به كالآخرين؟

ولأول مرة صرخت المضيفة بصوت حاولت جاهدة أن تحد من قسوته بعد نفاد صبرها من تطاول ضيفتها:

- أعلم عن ماذا؟ عمّ تتكلمين أيتها المجنونة..؟

- تقولين مجنونة... أنت أيضا تتهمينني بالجنون... ماذا ستقولين عني بعد أن تسمعي سري إذا..؟

وشعرت سيدة البيت بأنها قد تسرعت بإظهار نفاد صبرها، فقالت بصوت يملأه الحنان والاهتمام وكأنها تداوي جرحا أصابته بسهم:

- هو تعبير لم أقصد معناه... صدقيني، كلمة صدرت من الأعماق بعفوية لترسم صورة للحالة النفسية لامرأة يتملكها اليأس والألم.

وصرخت وفاء بصوت مجلجل ويديها تكملان بالإشارة الصورة الواضحة:

- أنت لا تفهمين... لا تفهمين...

- أفهم ماذا؟ تكلمي.

- سأتكلم، سأتكلم... لكنني أخاف ضرا قد يصيبك لو علمت سرّي... كما أخاف على نفسي من زوجي لو علم بأنني بحت بذاك السر.

واهتز جسدها بقشعريرة خوف، وعلت نبرات صوتها وصرخت وهي تمسك برقبتها:

- سيذبحني زوجي لو علم بأنني بحت بالسر، سيذبحني أتفهمين..؟ أما أنت فقد يصيبك ضرر قد يصل إلى القتل، فزوجي الآخر لا يعرف الرحمة.

خرجت الكلمات المبعثرة على لسان المضيفة وهي تقول:

- زوجك الآخر؟ أتعنين أن لك زوجا ثانيا غير زوجك؟ كيف؟ متى..؟

واقتربت وفاء وقالت بصوت هامس:

- هس... لا تتكلمي... إنصتي واستمعي إليّ... وسأقول لك كل شيء، على أن تعديني ألاّ تتفوهين بالأمر لأي مخلوق.. فلزوجي الآخر سطوة وقوة... وله أعوان وعيون خلف الأبواب والحوائط وقد يكون خادمك الأسمر هذا إحدى عيونه التي تلاحقني أينما ذهبت.

وهوت كلمات الزائرة الغريبة كمطرقة على رأس سيدة البيت، فأحاطت رأسها بكفيها وتقوقعت في مجلسها بعد أن بدت بوضوح حالة وفاء النفسية البائسة، فأمسكت عن أي تعليق أو جواب خوفا

من أن تثير كلماتها غضب محدثتها فينطلق الشك والشر في غياهب ذلك الغامض المجهول. ونظرت السيدة إلى عين زائرتها التي كانت تحدق بها بنظرات غريبة، فتملكت جسدها رعشة جزع حقيقية انتشرت حتى وصلت الى أطراف أناملها، فدفنت أناملها المرتعشة بذراعي المقعد في محاولة للسيطرة على الرعشة التي أصابتها بانتظار الخطوة المجهولة التالية لزائرتها المريضة. وأخذت وفاء تومىء برأسها مرارا والنظرة الشرسة تهيمن على وجهها ثم قالت:

- أجل... لقد أُصبت بصدمة مخيفة، كالصدمة التي أصابتك، حين علمت بأمر زواجي الجديد وبالصفقة التي أبرمها زوجي مع الوجيه محمد علي.

وقطبت المضيفة حاجبيها بتساؤل، فالوجيه محمد علي من أهم أعيان هذه البلاد ومتنفذ فيها. قالت والتساؤل في عينيها:

- وما دخل الوجيه محمد بتلك الصفقة، ومادخل تلك الصفقة بزواجك الثاني؟

وصرخت وفاء بصوت ناشز وهي تلوح بكفيها في وجه السيدة:

-أيتها المخبولة... ألم تفهمي حتى الآن؟ فالوجيه محمد هو الرجل الآخر... زوجي الآخر!

وسقط كوب الماء من يد المضيفة واكفهر وجهها حتى برزت عيناها، وحاولت أن تقول شيئا لكن الكلمات وقفت خرساء كالعلقم في حلقها الجاف. وأكملت وفاء حديثها وهي تومئ برأسها مرارا:

- لقد كنت مثلك أجهل كل شيء حتى علمت بالأمر منذ ثلاثة أشهر فقط. لقد تخلى زوجي عني مقابل صفقة عمل منحها الوجيه له لضمان سكوته. وكنت طيلة هذه المدة أجهل أمر تلك الصفقة وأجهل ان زواجي من الوجيه كان الشرط الأساسي للموافقة عليها.

واستجمعت سيدة البيت بقية من نبرات واهنة وتساءلت في شك:

- أيعني أنك أصبحت زوجة لرجلين..؟

- ألم أقل لك إننا نعيش كغريبين تحت سقف واحد. إن زوجي لم يمسسني لأكثر من ثلاثة أشهر خوفا من غيرة زوجي الآخر وبطشه.

وأردفت وفاء وهي تجعل من أناملها صورة لشكل مسدس قائلة:

- إنه يخاف منه... لقد حاول الوجيه قتله مرارا، ليرهبه وليحذره من مرافقتي والاقتراب مني.

وسكتت لبرهة ثم قالت وكأنها تروي حدثا حقيقيا:

- في الشهر الماضي أصابتني وعكة صحية رقدت على أثرها في الفراش، وقد عادني الوجيه أثناء مرضي عدة مرات ليطمئن على صحتي وسلامتي.

وتساءلت سيدة البيت والشك واضح في نبرات صوتها.

- زارك في بيت زوجك..؟

وقفت وفاء فجأة وصرخت بصوت ناشز عصبي وقد تشنجت عضلات وجهها كحبل مشدود:

- تظنين أنني أختلق هذه الوقائع؟ أنسجها من عقلي المريض، وبمعنى آخر تتهمينني صراحة بالجنون، إن كان لديك شك فيما قلته لك اسألي لطيفة صديقتك أو اسألي زوجها مساعد الوجيه ويده اليمنى... فهو يعلم كل شيء... العالم كله يعرف قصة حب الوجيه وعشقه، ومع ذلك لا يجرؤ أي مخلوق على البوح بسرنا خوفا من قسوته وبطشه. ومن شدة حبه وغيرته عليّ يلاحقني بحبه أينما ذهبت، متنكرا حينا أو ملثما حينا آخر حتى أنه لم يتورع عن لبس عباءة امرأة متخفيا كي يجلس خلفي في الحفلات الخاصة بالنساء. ثم يرسل مساعده أو أحد أعوانه لإحضار الأفلام والصور التي تؤخذ في تلك المناسبات كي يشاهدها وحده. وكنت طيلة ذلك الوقت أجهل أسباب تسليط عدسات الكاميرا على وجهي كيفما تحركت أو مشيت... وحينما طغى عليه الشوق والشك أمر زوجي بصرف الخدم الذكور في بيتنا لشدة غيرته وخوفه عليّ .فحبه أسطورة عشق غريبة، وأنا تائهة بين نارين: نار الخوف من تلك الصفقة التي زوجتني له دون علمي، ونار السعادة التي أشعر بها كلما فكرت به وبما قاساه من أجل حبي.

والتقطت وفاء أنفاسها المبهورة المتسارعة وقالت بصوت منكسر:

- لهذا الأمر جئتك... جئت أستشيرك في أمري ومصيري ...فهل أذهب إليه بنفسي بعد أن أقنعني بحبه وعذابه، أم أنتظر مجيئه بهدوء وصبر كي يصحبني بنفسه إلى عشنا الجديد..؟

كانت سيدة البيت قد تابعت بحذر وشك تصرفات وحديث زائرتها الغريبة منذ اللحظة الاولى لدخولها البيت. وبعد جولات من الأحاديث اللامنطقية المفككة المصحوبة بتصرفات غريبة، تحول الشك إلى يقين يفرض نفسه بقوة. وتيقنت، وقد تملكها الحزن والخوف، بأن المرأة القابعة أمامها تعاني من مرض نفسي قد يكون خطيرا على المريض ومن حوله، فجهاز الضبط قد انفرط عقده ولا سلطان للعقل على ثورة الجسد وتصرفه. وشعرت سيدة البيت أن معالجة أمر زائرتها يتوجب الكثير من الحيطة والحذر، إذ قد يتحول الجسد الهادئ والحديث المقنع إلى ثورة لا تعرف عقباها، تشعلها نظرة شك أو كلمة في غير موضعها، ولهذا ركبت سيدة البيت مركب الخيال والهلوسة كي تجاري زائرتها في شطط العقل والكلام..

وجاء صوت وفاء راجيا ليعيدها من شرودها الوجل:

- فكّري، فالأمر في غاية الخطورة... وأنا مازلت أنتظر رأيك.

وقالت سيدة البيت وهي تتابع مخارج كلماتها باهتمام وحذر:

- أنت ياصديقتي سيدة محترمة، ومن عاداتنا وتقاليدنا العربية ان يأتي الزوج أو العريس لاصطحاب عروسه من بيت ذويها.

واعترضتها وفاء قائلة:

- من بيت زوجي... من بيت زوجي...

- أجل من بيت زوجك، ولهذا أقترح أن تنتظري حيث أنت حتى يحضر الوجيه بنفسه ويصحبك إلى بيتكما الجديد.

وسكتت المضيفة ثم أكملت حديثها بعد برهة:

- أعلم أنك الآن زوجة الوجيه محمد علي إثر صفقة بينه وبين زوجك الحالي... ولكن ما رأيك أنت بما جرى وهل اقتنعت بزواجك من الوجيه، وهذا شرطه الاساسي كما فهمت منك، وتودين الانتقال للعيش معه بإرادتك..؟

قالت وفاء وقد انبسطت أسارير وجهها لتفهّم مضيفتها للأمر:

- لم أعلم بسر حبه الأسطوري لي إلا منذ اشهر قلائل، فحبه لي قد ملك قلبه وعقله حتى أوشك أن يودي به... فهل ترفض إمرأة، أي امرأة حبّاً كهذا؟ هل ترفض أي امرأة السعادة والمكانة الرفيعة التي يعدني بهما..؟

- هل أحببته إذا..؟

ونكست وفاء بناظريها إلى الأرض كمراهقة طرق الحب قلبها لأول مرة وقالت:

- أليس من حق قلبي أن يحب هو الآخر؟ أجل... لقد تسلل حبه إلى

قلبي كما يتسلل نور الشمس إلى قلب النهار... أجل، بت أبادله الحب فيزورني طيفه في المنام، ويطل بوجه كالبدر ليضيء ظلام أيامي بأنوار زاهية ساطعة.

- وماذا عن زوجك وأولادك؟ كيف ستكون علاقتك بهم..؟

وتحولت نظرات الحب الهادئة إلى نظرات نمرة شرسة وقالت بعصبية غريبة:

- لن يمنعني عن بيتي وأولادي لا ملوك ولا أموال العالم بأسرها. بل سنصبح جميعا عائلة واحدة، وأتنقل حيث يطيب لي بين هذا البيت أو ذاك دون جهد أو عناء، إذ هيأ الوجيه لي كل شيء في قصره... كل مايلزم من ثياب وأدوات زينة أو عطور، فقد عرف بطريقته الخاصة أيضا، مقاس الثياب التي أرتديها، والألوان التي أرغب بها بدءا بأردية النوم حتى أدوات التجميل والزينة.

وسرحت وفاء بخيالها في قصرها الجديد لبرهة قصيرة ثم أكملت الحديث قائلة:

- لم يعد ينقص القصر سوى وجودنا، كي نملأ أرجاءه بالفرح والسعادة.

- وهل حددتما موعدا معينا لذلك؟

وهبت وفاء واقفة على قدميها ونظرت إلى عين المضيفة نظرات غامضة، وقالت وهي تحرك ذراعيها بقوة:

- ألست معي؟ ألم تفهمي ما قلته لك مرارا؟ فأنا لا أستطيع الذهاب إليه بنفسي... ألم تكن هذه نصيحتك لي أيضا؟ مازال ينتظر اقتناعي بأمر زواجي الجديد، ويتراءى له أنني مازلت أرفضه... وهو يرفض أن يكرهني على الانتقال إلى بيت الزوجية عنوة، وقد طال صبره وانتظاره حتى فاض به الكيل وبدأ بالتهديد والوعيد.

- لماذا يهددك وأنت راغبة به وتنتظرين إشارة منه؟

- لا أدري، لا أدري... ربما يريدني أن أذهب إليه بنفسي كي أرتمي على قدميه وإلا..

- وإلا ماذا..؟

- سيطلبني لبيت الطاعة!

وتمرد عقل السيدة بقسوة رافضا المواصلة في الشطط والخيال قرعت أجراسه بقوة حتى أمسكت السيدة برأسها بكلتا كفيها ائلة والرعب يملأ قلبها:

- بيت الطاعة..؟ من أخبرك بأنه سيطلبك لبيت الطاعة..؟

- هـــــو

- هل قابلك..؟ أو حدثك بالأمر على الهاتف..؟

- أبـــدا، أبـــدا..؟

- ربما أرسل لك رسـالـة أو رسـولا يحّـمله لواعج حـبـه أو تـهـديده ووعيده؟

- مطلقا... قلت إنـه لم يتصل بي أبدا!

- وكيف عرفت إذا بحبه وعشقه الذي كاد يوصله إلى الموت؟ كيف عرفت بجميع تلك الأمور عنه وعن قصره وأخيرا تهديده بطلبك إلى بيت الطاعة؟

وقفت وفاء فجأة وكأن عقربا قد لسعتها في صميم قلبها وأخذت بالصراخ بلسانها ويديها وجسدها وكأن عاصفة هوجاء قد تملكت ذلك الجسد المتعب، وتدحرجت الكلمات من شفتيها المرتجفتين، مفككة مبهمة واستطاعت السيدة أن تلتقط بعض تلك الكلمات أثناء غضبة زائرتها وثورتها.. وكانت تلك تدور حول موضوع واحد، حب الوجيه وعشقه وملاحقته لها وتنكره حيثما ذهبت بالصور والأفلام وأعوانه المبثوثين حولها... وكانت الزائرة في خضم تلك اللحظات تلتقط أنفاسها المتسارعة حتى بدا صوتها كفحيح أفعى تلفظ آخر أنفاسها... فتملك الذعر سيدة البيت واقتربت بكثير من الحيطة نحو زائرتها وهي تتلمس موقع قدميها ولسانها، فأمسكت بكتف وفاء تربت عليها بحنان ظاهر وهي تقول:

- اهدئي يا ابنتي، اهدئي... واجلسي هنا بقربي، فالغضب قد يفتك بجسدك المتعب...

- كيف يجد الهدوء طريقه إلى قلبي أو جسدي والخوف يتملكني والجزع يتحكم بليلي ونهاري؟ فأنت لا تعرفين مدى بطش هذا الوجيه وقسوته... فقد يظن عزوفي عنه إهانة له، وقد يتخذها ذريعة للبطش بي او بأحد أبنائي... وقد ينفذ تهديده فيقتل زوجي او يطرده من البلاد، وعندئذ ينفذ تهديده ووعيده ويرغمني على العيش معه رضيت به أم أبيت.

وسكتت وفاء لبرهة وجيزة ووضعت كفيها على ركبتها وهي تجلس على حافة المقعد بجانب السيدة، وأخذت أساور معصميها ترتجف مع اصطكاك ركبتيها وقد كسا وجهها وجوم يوم غائم قاتم، حتى بدت هالات التعب الزرقاء حول عينيها كرماد أزرق يحيط بجمرة ملتهبة. وأكملت وفاء حديثها بعد ان التقطت بعض أنفاسها المتلاحقة:

- أشعر وكأني أقف على شفير هاوية لا قرار لها، تلاحقني الأشباح في الليل كما في وضح النهار، فتعاف عيناي النوم، ويتملك جسدي التعب والإرهاق حتى أنهار تماما أمام الطرق المقفلة أمامي.

واتقدت عينا وفاء بنور داكن غريب فأحاطت جسدها بذراعيها كأنها تحمي نفسها من المجهول وأردفت قائلة بصوت حزين:

- ما الذي جنيته في دنياي كي يعاقبني الإله بهذه المحن، وأولها كان زواجي من زوجي؟ فكل اللوم يقع على عاتقه وحده، فهو الذي أخفى عني أمر صفقة زواجي من الوجيه لمصلحته الخاصة. لو أنه أخبرني بنيّته بالتخلي عني لاختصرت الطريق وهربت بأولادي

من البلاد خوفا على نفسي وعليهم... وعندما وقعت الطامة وفاتحته بعلمي بالأمر... أنكر وهزأ مني واتهمني بالجنون... فلن أغفر له فعلته تلك أبدا... أبدا .

ووجدت السيدة نفسها تقول بعفوية صادقة:

- لا تيأسي يا ابنتي فإن ضاقت... فرجت... ولو سدت منافذ الطرق كلها فلا بد من بصيص نور ينير ظلام الطريق ويعيد إلى قلبك الأمل.

وانفرجت أسارير وفاء فجأة وانحنت برأسها على كتف السيدة التي أخذت تربت على كتف زائرتها بحنان صادق، ورفعت وفاء رأسها عن كتف السيدة وانزلقت ببطء عن المقعد حتى جلست على أرض الغرفة ثم وضعت كفيها على ركبتي السيدة ورفعت بصرها إلى عيني مضيفتها ثم قالت بصوت خافت هادىء:

- لقد أتعبتك معي، وقد تحملت ما لم تقبله شقيقتي منى التي هي ابنة لأمي وأبي.. ولم أشعر ولو للحظة واحدة أنك تستهزئين بي كما تفعل هي كلما لجأت إليها، فلقد سدت "منى" في وجهي كل الأبواب والطرق ولهذا طرقت بابك، ولم أشعر بالندم للجوء إليك...

وسكتت وفاء لبرهة والسيدة تنظر مبهورة إلى وجه ضيفتها الذي تلون بخفر المراهقات وحيائهن، فربتت على كتف وفاء وكأنها تشجعها على الاستمرار في الكلام... فنكست وفاء نظرها إلى الأرض وقالت بخجل:

- أتحفظين السر؟ إن الحب الذي ملأ قلبي هو النور الذي ينير طريقي المظلم... فكلما فكرت به وبما تحمّل من أجل حبي ترفرف عصافير الفرح بين جوانحي. ولقد كنت طوال هذه السنين تلك الفتاة الحمقاء التي تجهل ما يدور حولها، والآن بعد أن عرفت كل شيء بت أتذكر أحداث السنين الماضية فأرى شريطا من الذكريات تصب كلها في نهر واحد فقط، نهر حبه الجارف المتدفق... فحبه قد عشّش في قلبي منذ عرفت الحياة، وقد ازداد الشوق إليه بعد أن زارني الملاك مرة بعد مرة في منامي وصحوتي كي يحدثني عنه وينقل لي أخباره ومعاناته.

وتوقف الزمن لبرهة ورفرفت في أضواء الغرفة أهازيج الفرح المجنون وأمسكت وفاء بكف السيدة المبهورة قائلة:

- ضعي كفك هنا على قلبي الذي يرقص فرحا كلما ذكرت الحبيب أو تخيلته بقربي. أتسمعين دقات الحب في قلبي؟ فهي له، ولكن كيف أخبره بأنني له كما هو لي؟ وهو رغم حبي ما زال يظن أنني عازفة عنه وعن حبه، حتى أوصلته غيرته إلى إرغامي على قبول حكم الطاعة!

ورمت سيدة البيت بذراعيها إلى الوراء وكأن المطرقة عادت لتدق أجراس الخطر ثانية وقالت:

- كيف وصلك حكم الطاعة؟.. هل بلغك به الملاك في إحدى زياراته؟

وابتسمت وفاء بابتسامة كبيرة واقتربت من السيدة حتى جلست بقربها وقالت بصوت هامس:

- بل هو الذي فعل، الوجيه بنفسه!

- كيف..؟

- سأجيب على سؤالك بسؤال...

- ما هو؟

- هل شاهدت الوجيه بالأمس على شاشة التلفاز؟

- أجل شاهدته، ولكن ما دخل هذا بحديثه؟

وأكملت وفاء دون أن تسمع كلمات محدثتها:

- هل تابعت الكلمات التي قالها في خطابه؟

- أجل تابعتها... ولكن...

- ألم تلاحظي شيئاً غريبا في نظراته أو حركات يديه أثناء الخطاب؟

- لا.. لم ألحظ أي تصرف يلفت النظر.

وقفزت وفاء من مجلسها وصرخت بعصبية:

- أيتها البلهاء، أنت أكثر بلاهة وغباء مني... هكذا كنت قبل أن أعرف بالأمر برمته.

ثم اقتربت من إذن مضيفتها والفرح المجنون يلمع في عينيها وقالت بصوت هامس:

- لقد باح لي بالأمس بحبه كما فعل في المرات السابقة، مرارا وتكرارا، لكنه أضاف هذه المرة على عبارته "أحبك أحبك" كلمات جديدة أخرى، قال لي إنه ما زال متمسكا بي حتى النهاية، وإن صبره قد نفد ولهذا فلن ينتظر حتى أقتنع بحبه وأمر زواجي منه، بل إنه سوف يطلبني لبيت الطاعة!

وتمرد عقل السيدة وانفجر الغيظ في داخلها وصاحت باستنكار من نفد صبره:

- وهل يصدق كلامك شخص عاقل أم مجنون؟ أيعقل أن يبوح...

ولم تكمل السيدة بعضا من كلامها حتى هبت وفاء وكأن صاعقة سقطت على أم رأسها فجأة، شحب وجهها، وارتجف جسدها برعشة عارمة واقتربت كالعاصفة نحو السيدة المذهولة وهي تلوح بحقيبة يدها وتصرخ:

- مجنونة... تقولين إنني مجنونة... بعد أن فتحت لك قلبي وكشفت لك عن سري... إذاً كنت تستمعين إلي وتهزأين مني طوال هذه المدة، بعد أن صممت أذنيك عن سماعي أو تصديق ما قلته، يا لرباطة جأشك !كيف استطعت السكوت على جنوني حتى الآن؟ ألم تصدقي ولو كلمة واحدة مما قلت..؟ أتظنين أن كله كان خيالاً وكذباً؟ خيالاً وجنوناً؟

وكانت السيدة قد شعرت بالخطر الحقيقي من ثورة وفاء وهجومها، فأسرعت بالوقوف، ومدت ذراعيها وهي تتراجع خطوتين إلى الوراء لتحمي نفسها، وتمنع وفاء من التقدم نحوها، كأنها قد استجمعت من داخلها قوة يختزنها الإنسان لحين الشعور بناقوس الخطر، فأمسكت بكتفي وفاء بقوة حتى سقطت الحقيبة على الأرض. وتسمرت وفاء في مكانها، والسيدة ما زالت ممسكة بكتفيها تهزها بقوة وهي تقول بصوت قوي آمر:

- أصدقك أيتها الحمقاء، أصدقك... وأيم الحق أصدقك... وإلا فمن يجبرني على الجلوس معك والاستماع إليك لساعة أو يزيد... فاهدئي... اهدئي، فالعنف والعصبية يزيدان من تعقيد الأمور بدل حلها، اجلسي الآن وأكملي ما كنت بصدد قوله.

وكان لأسلوب السيدة فعل السحر على وفاء، فانحنت والتقطت حقيبة يدها عن أرض الغرفة، وجلست على طرف المقعد وهي تداعب الحقيبة بأناملها... ثم رفعت بصرها إلى وجه السيدة وقالت بتمرد طفولي:

- لن أقول شيئا... لن أقول... بعد أن اتهمت بالجنون...

- لم يتهمك أحد بالجنون... بل قلت بالحرف الواحد : " هل يصدق هذا الكلام شخص عاقل أو مجنون " ولم تتركي لي المجال لاكمال ما بدأت.

-إذا أكملي ما بدأت به سالفا... أكملي...

- أخاف أن تثيرك كلمة هنا أو هناك ونعود للعصبية والعنف...

- أعدك بأنني لن أتحرك من مجلسي، تكلمي بسرعة لأن الوقت قد سرقني، ويجب أن أعود إلى البيت قبل عودة زوجي...

- حسنا، قلت إن الوجيه قد باح لك بحبه على شاشة التلفاز علانية، وبأنه حذرك ببيت الطاعة إن لم تستجيبي لنداء قلبه وتذهبين للعيش معه...

وانفرجت أسارير وفاء وقالت بصوت متهدج خجول وهي تومئ برأسها لتؤكد قولها:

- أجل، لقد قال لي كل هذا... وكلاما كثيرا آخر...

- هكذا علانية، على مرأى ومسمع الآلاف المؤلفة من الناس..؟

ورفعت وفاء يدها والأساور تتراقص في معصمها، ضحكت حتى عادت برأسها إلى الوراء وقالت وقد ربض الضحك بابتسامة على شفتيها:

- أيتها المخبولة، هل يعقل أن يقول لي كل هذا الكلام بصوت مسموع؟ فهل يبوح الرجل بحبه لحبيبته على مسمع الناس جميعا..؟

- كيف إذا..؟

- كان يتمتم لي فقط، يحرك شفتيه وينظر إلى وجهي بنظرة خاصة، كي أسمع تلك التمتمة وأفهمها وحدي. فتلك هي وسيلته في إخباري بما يريد.

- وهل كان تهديده لك بنفس ذلك الأسلوب؟

وهزت وفاء برأسها مؤكدة قولها وهي تقف في وسط الغرفة:

- أجل، وبالإشارة أيضا... عندئذ رفع كف يده في وجهي وحذرني بسبابته هكذا -وحركت وفاء إصبعها في حركة تحذيرية- متمتمة بأنه فاض به الصبر، وأنه سيطلبني لبيت الطاعة لإرغامي على العيش معه.

ونظرت وفاء إلى ساعة يدها وهرعت نحو الباب مسرعة وهي تقول:

- يجب أن أذهب الآن، يجب أن أعود إلى المنزل قبل عودة زوجي، فقد يصيبه الجزع إن عاد إلى البيت ولم يجدني...

ولحقت سيدة البيت بزائرتها وهي تتمتم بين شفتيها:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، لا حول ولا قوة إلا بالله...

وما إن وصلت وفاء إلى الباب الخارجي حتى هرولت عائدة إلى الصالة حيث وقفت السيدة وقالت بصوت حزين:

- ما شكل بيت الطاعة؟ هل تعرفين شيئا عنه..؟ يقال إنه غرفة قديمة موحشة، تحتوي على أثاث قديم قذر، تكره المرأة على العيش فيها، وتكره على معاشرة زوجها لتأديبها لأنها زوجة ناشز... فهل أنا زوجة ناشز..؟

وأمسكت السيدة بكتف وفاء وهي تسير بها نحو باب البيت، ثم فتحته وهي تقول بعفوية من يجهل الأمر:

- للحقيقة أنا لا أعلم الكثير عن هذا الموضوع، ولكن لأجلك سأستفهم عن بيت الطاعة، وأحكامه، ووسائل الراحة المتوفرة فيه.

ووقفت وفاء عند الباب وأمسكت بكف السيدة بين كفيها وقالت بامتنان ظاهر:

- أشكرك، أشكرك... لا أحد يعرف مدى الارتياح الذي أشعر به الآن بعد أن بحت لك بسري... ورجائي أن يبقى هذا السر بيني وبينك...

ثم أطرقت للحظة خاطفة وأتمّت حديثها قائلة:

- هل أستطيع الحضور إليك كلما تراكمت الهموم على كاهلي وشعرت بحاجة ملحة للحديث مع شخص آخر يسمعني ويصدق كلامي؟ هل أستطيع..؟

وربتت سيدة البيت على كتف وفاء بحنان ممزوج بالخوف والهلع وقالت :

- أهلا بك دائما، فالبيت بيتك وقت ما تشائين... ولا تنسى أن تبلغي شقيقتك مُنى تحياتي وسلامي.

وأغلقت سيدة البيت الباب بعد ذهاب وفاء ورمت بجسدها المتعب على أقرب مقعد تاركة رأسها بين كفيها، وأجهشت بالبكاء، كأن شيئا قد انكسر أو تهشم في داخلها وأخذت تردد: مسكينة أيتها المرأة... مسكين أيها الإنسان، فما جسدك سوى أداة طيعة لأهواء سلطان العقل وانضباطه.

وجلست السيدة مسمرة في مقعدها تحاول أن تسترجع ما مر بها من أحداث مع زائرتها خلال تلك الساعات التي بدت كدهر من الزمن، وحاولت أن تجد منفذا يبرر ذاك الجنوح في عقل تلك المرأة المسكينة... فعادت بذاكرتها إلى الوراء، إلى تلك السنة المدرسية التي زاملت فيها "منى" شقيقة وفاء الكبرى، فلتلك السنين مكانة خاصة في قلب كل امرئ، وأحداثها تبقى راسخة مسجلة في عقل الإنسان وقلبه.

وتراءت لها منى بوجهها المسطح الصارم وقامتها القصيرة الممتلئة وهي تجر وراءها شقيقتها الصغرى وفاء التي تنوء تحت ثقل ما تحمل من كتب وكراريس شقيقتها منى بينما كنا نحن، بقية الفتيات، نحمل كتبنا وحقائبنا بأنفسنا... وكانت منى تزجر وفاء من حين لآخر كلما تباطأت في المشي او سقط من بين يديها كتاب او كراس، فتؤنبها بقسوة قائلة:

- أسرعي أيتها الغبية، واحرصي على كتبي كحرصك على عينيك... فتتأفف الصغيرة وهي تتظاهر بالبكاء، فتواصل منى شتائمها لأختها:

- دعك من هذا الدلع، فقد أصبحت أطول مني ومازلت تتصرفين كطفلة، طويلة... وهبيلة.

وتراءى للسيدة وجه وفاء الهادئ حتى الغموض وهي تجري في حوش المدرسة بحثا عن شقيقتها منى... وما إن تجدها حتى تقف صامتة بقربها وقد اكتست ملامح وجهها بالرضى والأمان... فتهزها منى بفظاظة قائلة:

- إذهبي بعيدا عني.. دعيني مع صديقاتي.. وابحثي لنفسك عن تسلية غيري... لماذا لا تلعبين مع زميلاتك..؟

فتهز وفاء رأسها وكتفها بحركة الرفض... فتكمل منى حديثها مهددة شقيقتها قائلة:

- طبعاً، فليس بينهن من ترضى باللعب مع فتاة غبية مثلك، ابتعدي عني وإلا فلن أساعدك في واجباتك المدرسية لأسبوع كامل.

فتبكي وفاء بحرقة وتزداد اقترابا والتصاقا بشقيقتها، فتدفعها تلك بخشونة ورعونة بالغة، فتهزها سعاد، وتنضم بقية الفتيات للمشاركة في تأنيب منى على تصرفها مع شقيقتها التي تصغرها بأعوام قليلة... فتتأفف منى بنزق قائلة:

- فلتتفضل أي منكن وتستضيفها كشقيقة لأيام معدودة، ثم احكمن بأنفسكن... فهي تتصرف وكأنها ما زالت طفلة صغيرة، تريدني أن أمسك بيدها كيفما مشيت أو تحركت... وإن سهوت عنها في البيت، اختفت في ركن وحدها، صامتة ساكنة كتمثال من الشمع، فنقوم بالبحث عنها أنا أو أمي فنجدها مختبئة خلف أحد الأبواب أو المقاعد. فخجلها وانطواؤها فاقا كل تصور أو مبالغة. وعلّقت سعاد بمكر:

- إذا يجب أن تدعيها تجلس دوما معك... ربما تعلمت منك بعض الجرأة والشطارة...

وابتسمت منى باستهزاء قائلة:

- تتعلم الجرأة، وفاء تتعلم الشطارة... لا بد أنك تهزئين، فهي فتاة خائبة، فلا هي في الدراسة ناجحة ولا في أعمال البيت فالحة، حتى أصبح وجودها حولي كالهم على القلب.

ومرت السنين وانقطعت أخبار منى عن السيدة حتى قابلتها صدفة في أحد الأسواق... وكان بصحبتها سيدة جميلة، ممشوقة القامة لكنها صارخة الزينة والملبس، تترك شعرها الأسود المنفوش بإهمال على كتفيها ووجهها، وكأنها تفرض نفسها على عيون الملأ جميعا. ومدت السيدة يدها لتحيي المرأة، فقالت منى باقتضاب:

- وفاء... شقيقتي...

واندهشت السيدة وحملقت في وجه المرأة الملطخ بالأصباغ

والألوان وقالت وعبرات التعجب تسبق نظرات عينيها:

- أهذه شقيقتك وفاء؟ نفس تلك الفتاة الهادئة الخجولة؟

وهزت منى رأسها بالإيجاب كمن يرغب بأن ينهي حديثا لم يبدأ به بعد، وفي نفس الوقت صدرت عن وفاء ضحكة مجلجلة قصيرة وهي تبعد بكف يدها الشعر المتناثر على وجهها بحركة تمثيلية ماهرة قائلة:

- أجل، وفاء... وقد أصبح لي الآن بيت وزوج وأولاد.

وجاء الخادم يقرع باب الصالة مرارا فهرعت السيدة مسرعة لتستوضح الأمر، ثم وكأنها استدركت أمرا هاما، عادت وأقفلت باب الصالة خلفها بقوة، لتحكم القيد على تلك الأسرار الحبيسة في تلك الصالة، أسرار تلك الزائرة الغريبة التي ما زالت أصداؤها تتردد في همس بين حوائط تلك الغرفة وجدرانها الحائرة...

فالإنسان لغز هذه الحياة الدنيا...

ولغز الإنسان في عقله وقلبه.

(٣)

مرض الفصام (الشيزوفرينيا)

يصيب مرض الفصام ما يقارب ١٪ من السكان. إلا أنه يعتبر من أهم الأمراض النفسية وذلك لكونه مرضا مزمنا وذا بداية مبكرة في معظم الأحيان مما يجعله مرتبطا بدرجة كبيرة من الإعاقة. ونظرا لكونه مرضا مزمنا فإنه يتميز بمعاودة الأعراض للمريض حتى ولو كان تحت العلاج. لذلك فإن مرضى الفصام يشغلون ما يقرب من ثلث إلى نصف أسرة المستشفيات النفسية في العالم. ويوجد المرض في جميع بلاد العالم ومختلف الحضارات بنسب يعتقد بأنها متقاربة. وتؤكد جميع الدراسات والبحوث على زيادة تفشي المرض بين الأقارب. فبينما تكون نسبة المرض أقل من ١٪ بين السكان بصورة عامة، تصل هذه النسبة إلى ١٠-١٥٪ بين الأقارب من الدرجة الأولى حسب ما بينته الكثير من الدراسات.

ولقد حاول الكثير من الأطباء منذ القدم التعرف على هذا المرض -والأمراض النفسية عامة- وتفسير أعراضه التي لم تكن مشابهة لما

عرف عن الأعراض والأمراض العضوية. فبينما أرجع البعض هذا المرض إلى اختلال في نسبة أخلاط الجسم المختلفة، عزاه البعض إلى لعنة تحل على المريض من الآلهة نتيجة لما قام به من أفعال لم تلق رضاها. كما قام البعض بتفسير المرض - وكذلك جميع الأمراض النفسية- على أنه روح شريرة تقمصت المريض، ومن ذلك جاءت طرق العلاج التي حاولت طرد هذه الأرواح الشريرة من جسم المريض المصاب كالزار وبعض الطقوس الأخرى وفتح ثقوب في جمجمة المريض.

وفي منتصف القرن التاسع عشر الميلادي حاول الأطباء تقسيم الأمراض النفسية وتصنيفها حسب تشابه الأعراض والتاريخ الطبيعي لكل مرض. وكان بنديكت موريل أول من استخدم لفظ "الخرف المبكر" في عام ١٨٥٦ ليصف به مرض الفصام. وكانت أول حالة وصفها لشاب كان ذكيا ونشيطا، ثم أصبح مكتئبا ومنعزلا فيما بعد. وفي عام ١٨٦٨ م قام كارل كالبوم بوصف مرض الفصام التخشبي بدقة، بينما أعطى هيكر للمرض اسم "فَنَد" في عام ١٨٧٠م. ويعتبر الفصام التخشبي والفَنَد والفصام الاضطهادي وغيرها أنواعا مختلفة لمرض الفصام الذي يصنف إلى مجموعات حسب الأعراض الغالبة في كل مجموعة. أما إميل كريبلين فكان أول من ترجم لفظ مورل إلى اللاتينية في عام ١٨٩٨ م لتشمل جميع أنواع مرض الفصام، وعرّف المرض بأنه عضوي ونابع من داخل الجسم، ووصفه بأنه يبدأ في سن مبكرة ويؤدي إلى تدهور سريع في الأعراض التي تشبه الخرف. وقد قام بفصل هذا المرض عن مرض آخر هو الهوس، وذلك بالتفريق بين الأعراض والتاريخ الطبيعي لكل من المرضين.

وكان يوجين بلويلر أول من استخدم لفظ الفصام للمرض في عام ١٩١١ م وعزاه إلى وجود انفصام في العقل ناتج عن عدم تمازج في وظائف النفس. وقام بتعريف الأعراض الأربعة التي عرفت باسمه والتي ميز بها مرض الفصام وهي:

١ - الترابط غير الطبيعي في الأفكار

٢- السلوك الانطوائي

٣- إضطراب العواطف

٤- تضارب الأفكار والأحاسيس

وقد عكس بلويلر في تعريفه لمرض الفصام تأثره بأفكار فرويد في تفسير معاني بعض الأعراض الذهانية. ولفت النظر إلى أن هذه الأعراض قد تكون موجودة لدى الناس الأصحاء عقليا في بعض الظروف. إلا أن حدة الأعراض ومدى استمراريتها هي التي تحدد أولئك الذين يعانون من مرض الفصام.

أما بالنسبة لسيجموند فرويد، فعلى الرغم من أن تغيرا قد طرأ على تفسيره لمرض الفصام عبر السنين، فإن تفسيره الأساسي للمرض كان على أنه خلل في الـ "أنا" أو الـ"ذات" ينتج عنه تعبير لغرائز ودوافع أولية ذات طابع جنسي وعدواني.

وبينما عرض كارل يونج في ١٩٠٣م تفسيره بأن مركبا ذهنيا مستقلا لا يكون خاضعا للوعي الإرادي هو السبب في بروز أعراض

الفصام التي كثيرا ما تكون ممثلة للوعي اللاإرادي، جاء أدولف ماير ليقدم تفسيرا آخر لمرض الفصام على أنه رد فعل غير متأقلم للأحداث الحياتية القاسية. أما هاري سوليفان فقد اعتبر الفصام مرضا غير عضوي ناتجا عن تفاعل تأثيرات عضوية وعوامل شخصية تؤدي إلى الإصابة بالمرض.

وهكذا قدم الكثير من الأطباء النفسيين تفسيرات مختلفة في محاولات منهم للتعرف على أساس مرض الفصام حتى الخمسينيات والستينيات من القرن الحالي حين تم اكتشاف بعض الأدوية التي تؤثر على سير المرض وتغير من حدة أعراضه. وعندها اتجه التفكير والبحث عن سبب عضوي يكمن وراء الإصابة بهذا المرض المزمن. وقد ساعد على هذا الاتجاه التقدم الملموس الذي طرأ على طرق دراسة وظائف المخ وما ينتجه من مواد كيماوية وهرمونات مختلفة، وما تبع ذلك من اكتشاف وسائل تشخيص دقيقة كأجهزة الأشعة المقطعية والتردد المغناطيسي استطاعت دراسة المخ وما يطرأ عليه من تغيرات دون اللجوء إلى التشريح أو أخذ عينات لدراستها، وسهلت التعرف على الخصائص التي يتميز بها المخ في المرضى الذين يعانون من مرض الفصام أو غيره من الأمراض النفسية الأخرى.

عوامل الاستعداد للإصابة بالمرض:

يعرف الاستعداد للإصابة بالمرض على أنه احتمال إصابة شخص سليم بالمرض عند تعرضه لأحد هذه العوامل أو بعضها. وتكون هذه العوامل كامنة في تركيب الشخص أو تكون مكتسبة أو أنها ظروف خارجية تتعلق بزيادة احتمال الإصابة بالمرض. وقد تم

التعرف على هذه العوامل من خلال دراسات مختلفة لمجموعات المرضى والخصائص التي تتميز بها، ومقارنة ذلك بمجموع السكان ككل وخصائصه. ومن هذه العوامل السن والجنس والطبقة الاجتماعية والعوامل الوراثية.

١ - العوامل الوراثية:

بحثت هذ العوامل من خلال دراسات تتعلق بالمرض ونسبة الإصابة به بين عائلات المصابين بمرض الفصام والتوائم والأطفال الذين تم تبنيهم من قبل عائلات أخرى. وقد بينت هذه الدراسات ما يلي:

١ - إرتفاع نسبة الإصابة بالمرض لدى أقارب المرضى المصابين بالفصام. وتصل نسبة احتمال الإصابة بالمرض إلى ١٠-١٥٪ لدى الأقارب من الدرجة الأولى مقارنة بنسبة الإصابة بين مجموع السكان ككل والتي لا تزيد عن ١٪.

٢ -تصل نسبة احتمال الإصابة بمرض الفصام إلى ٣٥-٤٥٪ لدى الأطفال الذين يولدون لأبوين مصابين بالمرض، بينما لا تتعدى هذه النسبة ١٪ لدى الأطفال الذين ينتمون لأبوين غير مصابين بالمرض.

٣ - أكدت دراسات التبني، التي أجريت في الأساس للحد من تأثير الظروف البيئية على مرضى الفصام، أهمية عامل الوراثة في الإصابة بهذا المرض. فقد لوحظ من خلال هذه الدراسات أنه رغم تغيير الظروف البيئية والمعيشية للأطفال الذين ولدوا لآباء مصابين بالمرض بتبنيهم مباشرة بعد الولادة من قبل آباء اصحاء، بقيت معدلات الإصابة بينهم أعلى بكثير من أقرانهم المولودين لآباء اصحاء.

٤ - إرتفاع معدل التطابق لمرضى الفصام بين التوائم أحادية البويضة والتي تصل إلى ٣٣-٧٨٪ مقارنة بنسبة ٨-٢٨٪ بين التوائم ثنائية البويضة. وفي حين كان يفترض أن يكون معدل التطابق ١٠٠٪ عند النوع الأول في حال تحكم العوامل الوراثية وحدها في قابلية الشخص للإصابة بهذا المرض، فإن نتائج الدراسات أشارت إلى غير ذلك مما حدا بالبعض إلى الاستنتاج بأن الفصام ينتج عن تفاعل عوامل بيئية هامة، ذات طبيعة اجتماعية أو نفسية، مع العوامل الوراثية. إلا أن البعض الآخر يعتقد أن تدني النسبة إلى ما دون ١٠٠٪ راجع إلى انحراف في نمو المخ يكون التوائم أحادية البويضة أكثر عرضة له وراثيا من غيرهم ويحميهم من الإصابة بمرض الفصام.

يتبين من جميع هذه الدراسات أهمية العامل الوراثي في الإصابة بمرض الفصام على الرغم من أنها لا تلغي تماما دور البيئة في التعرض للإصابة بهذا المرض.

٢ - العوامل العرقية والسلالية:

أشارت بعض الدراسات في السابق إلى اختلاف معدل الإصابة بمرض الفصام بين المجموعات العرقية والسلالية المختلفة. إلا أن تضارب نتائج هذه الدراسات مع بعضها أدى إلى الاستنتاج بأن ما لوحظ من اختلاف في هذه المعدلات مرده عدم استخدام الباحثين لوسائل موحدة في تشخيص الأمراض النفسية. وقد قامت منظمة الصحة العالمية بدراسة دولية حديثة حاولت فيها ضبط معايير التشخيص وأثبتت بأنه ليس هناك تمايز يذكر في معدل الإصابة بمرض الفصام بين هذه المجموعات المختلفة.

٣ - عوامل السن والجنس:

ينت الدراسات المختلفة أن مرض الفصام يصيب الأشخاص في العقود الثلاثة الأولى من عمرهم، وقلما يصيب من تخطى سن الأربعين. وتكون نسبة الإصابة بالمرض واحدة بين الجنسين. إلا أنه اتضح أن بدء ظهور أعراض المرض لدى الذكور يكون عادة في الفترة ما بين ١٥ إلى ٢٤ سنة بينما تكون هذه الفترة لدى الإناث من ٢٥ إلى ٣٤ سنة.

ينطبق هذا على فوزية، الشخصية الرئيسية في القصة الأولى "الاغتراب"، التي كانت في العشرينات من عمرها، وجاءت بداية مرضها عندما كانت في المرحلة الثانوية. أما وفاء، شخصية قصة "الزائرة الغريبة" فليس هناك ما يشير بوضوح إلى سنها لدى إصابتها بالمرض. إلا أنه يمكن الاستنتاج بأن ذلك جاء عندما كانت تلميذة بالمدرسة. ويشير انخفاض تحصيلها العلمي إلى بداية إصابتها بالمرض.

وأوضحت دراسات كثيرة أن الغالبية من مرضى الفصام يولدون في أشهر الشتاء مما حدا بالباحثين إلى تقديم نظريات كثيرة لتفسير هذه الظاهرة منها الأثر السلبي للعوامل البيئية الشتوية على المواليد الأصحاء والعوامل الوراثية الواقية التي تحمي المصابين بالمرض من تأثير هذه العوامل البيئية، إلا أن أيا من هذه النظريات لم تثبت صحتها.

٤ - العوامل الاجتماعية:

ساد الاعتقاد طويلا بأن مرض الفصام يكثر بين أفراد الطبقات

الفقيرة. إلا أن أيا من الدراسات العلمية لم تستطع إثبات صحة هذا الاعتقاد مما حدا بالكثير إلى تفسير ذلك في ضوء طبيعة المرض الذي غالبا ما يؤدي إلى تدهور حالة المريض العقلية والاجتماعية فيعجز عن الارتقاء بمستواه أو المحافظة عليه وينزلق تدريجيا إلى طبقة اجتماعية متدنية.

كما بينت الدراسات المختلفة أن معظم المصابين بمرض الفصام هم من غير المتزوجين. إلا أن هذا لا يعني بالضرورة أن الزواج يحفظ من الإصابة بالمرض بقدر ما يعني أن المرض يبدأ في سن مبكرة ويؤدي إلى تدهور مستمر في حالة المصاب مما يجعله غير مناسب للزواج في نظر الجنس الآخر. ولم تستطع الدراسات المختلفة تأكيد أثر الحياة المدنية العصرية أو الضغوط الحياتية المختلفة على الإصابة بالمرض، فقد اتضح أن معدل الإصابة يتشابه بين سكان المدن والقرى وبين الأشخاص المعرضين للضغوط وغيرهم.

ورغم أهمية جميع العوامل السابقة الذكر، فإن الفرضية السائدة الآن هي أن مرض الفصام ناتج عن خلل في وظيفة أحد أنواع المرسلات العصبية هو "الدوبامين". وبالتحديد فإن هناك زيادة وظيفية لمادة "الدوبامين" وهو أحد الأمينات الأحادية مثل الأدرينالين الذي يعد هو الآخر واحدا من المرسلات العصبية في الجهاز العصبي المركزي. وقد بنيت هذه الفرضية على دراسات كثيرة في علوم التشريح والأنسجة والوظائف والكيمياء الحيوية التي أجريت على الجهاز العصبي المركزي (المخ والنخاع الشوكي) وخلاياه ووظائف أجزائه المختلفة لكثير من الحيوانات المختبرية، ومرضى يعانون من مرض الفصام -أو الأمراض النفسية الأخرى-

وذلك بأخذ عينات أثناء حياتهم أو بتشريح جهازهم العصبي المركزي بعد وفاتهم، ومقارنتها بأخرى أخذت من أناس أصحاء لم يتعرضوا للإصابة بهذا المرض أو غيره من الأمراض النفسية. ولقد دعم هذه الفرضية المعلومات والنتائج المتوفرة عن الأدوية التي تستخدم لعلاج المرض والتجارب التي أجريت عليها. واتضح من كل ذلك أن هذه الأدوية تعطي مفعولها في علاج المرض من خلال حجبها للمستقبلات العصبية في خلايا المخ ومنع مادة الدوبامين من التفاعل مع هذه المستقبلات العصبية والتقليل من أثرها مما ينتج عنه تحسن في أعراض المرض.

أعراض المرض ومميزاته:

في البداية يجب التأكيد بأنه ليس هناك عرض خاص يميز مرض الفصام، فأي من الأعراض المذكورة يمكن أن يكون موجودا مع أمراض نفسية أخرى. كذلك فإن الأعراض التي يعاني منها مريض الفصام -كما هو الحال مع الأمراض النفسية الأخرى- يمكن أن تتغير أو تختفي وتحل محلها أعراض أخرى مع مرور الوقت. ولهذا فإن الوقت عامل مهم يجب أخذه بعين الاعتبار لدى تشخيص أي مرض نفسي. بالإضافة إلى ذلك، فإنه يجب وضع الحالة التعليمية والثقافية ومعدل ذكاء المريض في الاعتبار، فما يعتبر عَرَضاً مَرَضياً لدى مريض قد لا يكون كذلك لدى مريض آخر. كذلك لا يجب إغفال عامل البيئة التي يعيش فيها المريض وما هو موجود فيها من عادات وتقاليد وتعاليم دينية واجتماعية، لما لكل ذلك من أهمية بالغة في تفسير جميع الأعراض التي يعاني منها أي مريض والتي يمكن أن تختلف في أهميتها من مجتمع إلى آخر.

وربما يكون مناسبا هنا التنويه بأن كثيرا من مرضى الفصام يتميزون بشخصية معينة قبل إصابتهم بالمرض. فعلى الرغم من أن ٥٠-٧٥٪ من هؤلاء المرضى يبدون كأشخاص طبيعيين قبل ظهور المرض عليهم، فإن حوالي ٢٠-٥٠٪ منهم تميزهم سمات شخصية معينة قبل مرضهم تعرف في مجموعها بالشخصية الفصامية.

فمثلما كانت فوزية هادئة ووحيدة ومنطوية على نفسها لاتملك أي علاقات صداقة منذ طفولتها وحتى بلوغها مرحلة المراهقة والشباب، كذلك كانت وفاء تنزوي في ركن لوحدها صامتة ومختبئة خلف أحد الأبواب أو المقاعد، لا علاقات لها إلا مع صديقات أختها "منى" عندما يأتين لزيارتها في البيت.

وهكذا يتسم معظم أصحاب الشخصية الفصامية بالهدوء والانزواء والسلبية وقلة الأصدقاء منذ الصغر. وكثيرا ما يوصف الطفل ذا الشخصية الفصامية بأنه مطيع ولا يعرض نفسه لأية مشاكل أو مشاغبات. أما في سن المراهقة والشباب فيكون هذا الشخص منطويا على نفسه ومنشغلا في أحلام اليقظة. وكثيرا ما يكون مولعا بالموسيقى ومشاهدة الأفلام والتلفزيون لدرجة أنه يكون منعزلا عن النشاطات الاجتماعية الأخرى وفصول الرياضة البدنية، التي تتميز بالمنافسة.

وعادة ما تبدأ أعراض الفصام بالظهور بصورة تدريجية. قد يبدأ المريض بالشكوى من آلام في رأسه أو ظهره أو عضلاته **مثل تلك التي كانت فوزية تشكو منها لممرضة المدرسة. ومن الأعراض التي ظهرت على فوزية ووفاء انخفاض تحصيلهما العلمي**، وهو ما يعرف عن مريض الفصام إذا كان طالبا، كما يعرف عنه انخفاض

كمية العمل الذي يؤديه وانعزاله اجتماعيا وعدم عنايته بمظهره وحاجاته الشخصية. وكثيرا ما يبدو قلقا في هذه المرحلة وميالا إلى التصوف أو الفلسفة أو التدين. وقد تبدر منه في هذا الوقت تصرفات خارجة عن المألوف وعواطف غير طبيعية وأفكار غريبة وكلام غير مفهوم. بعد ذلك، وبالتدريج ، تبدأ الأعراض الأخرى بالظهور وتشمل:

١ - المزيد من الانطواء وإهمال المظهر الخارجي وعدم الاهتمام بالنظافة الشخصية كالاستحمام والحلاقة والغسيل. وكثيرا ما يبدو المريض غير مهتم بما يدور حوله فلا يشارك في الحديث ولا يتفاعل كثيرا مع ما يجري حوله من أحداث، **تماما كما كانت فوزية بانزوائها في غرفتها في بيت الطالبات ونفورها من مجالسة أي أحد.**

٢ - الإكثار من تكرار تصرفات أو حركات معينة أو ترديد نفس الكلمة أو الجملة أو السؤال مع وجود سلبية وعدم تعاون مع الأقارب والأصدقاء والأطباء المعالجين.

٣ - تبلد في العاطفة والشعور وعدم وجود أية تعابير على وجه المريض تعكس ما يشعر به من أحاسيس وتفاعلات داخل نفسه. وكثيرا ما تكون تعابير المريض غير متناسقة مع ما يحيط به من ظروف أو مع ما يجب أن يحس به، فهو يضحك عندما يتكلم عن حدث محزن أو يبكي حين يصف مشهدا يبعث على السرور والفرح. **وهذا ما حدث لفوزية عندما توفي والدها، فلم تشعر بالحزن وانزوت هادئة في غرفتها وكانت تنظر بشك وريبة إلى النساء الباكيات.**

٤ - الهلوسات السمعية والبصرية وغيرها مما يتعلق بالحواس الخمس. وتعتبر الهلوسات السمعية هي الأكثر شيوعا بين مرضى الفصام (حوالي ٥٠-٧٥٪ من المرضى). وقد يسمع المريض أصوات أناس يعرفهم كأقاربه - سواء كانوا أحياء أم أمواتا- أو جيرانه. **وكانت فوزية تسمع صوت أختها التي توفيت إثر مرض في شهرها السادس يحذرها من أمها التي تدبر لقتلها وقتل والدها كما فعلت معها قبلهما. كذلك كانت تنكر موت أبيها لسماعها له يخاطبها كل ليلة.**

كما قد يسمع مريض الفصام أصواتا لأناس آخرين لا يعرفهم أبدا. وقد يسمع أصواتا يعتقد أنها لله أو للشيطان تأمره بالقيام بأفعال معينة. وربما تكون الأصوات صادرة عن أكثر من شخص تعلق على تصرفاته وأفعاله أو قد تهزأ منه أو تحذره أو تنتقده أو تهدده.

وتتراوح الهلوسات البصرية من رؤية صور غير واضحة للأموات أو الأقارب الغائبين إلى مناظر دقيقة التفاصيل للجنة أو جهنم أو أماكن أخرى. **وكانت فوزية ترى أغصان الأشجار تمتد إليها لتخنقها، وترى وفاء وجه الوجيه يزورها في مرضها، وتسمعه يكلمها دائما.**

أما الهلوسات الحسية، والتي عادة ما تكون نادرة، فإنها تأتي على شكل شعور بأن شيئا أو شخصا ما يسيطر على أحد أعضاء جسم المريض أو أن هناك حيوانات داخل جسمه أو حشرات على جلده أو تحته. ويمكن أن تكون الهلوسات كرائحة كريهة تنبعث من داخل الجسم أو خارجه.

ويجب التأكيد هنا على أن المريض يسمع فعلا هذه الأصوات على الرغم من عدم تمكن الذين من حوله من سماعها لعدم صدورها من أي مصدر خارجي، ولكنها تنتج عن اختلال في نقل الإشارات العصبية داخل مخ المصاب تؤدي به إلى سماع مثل هذه الأصوات أو رؤية مناظر أو شم روائح معينة أو الاحساس بالألم.

٥ - التوهمات والتخيلات المختلفة كتوهم العظمة أو الاضطهاد أو غيرهما والتي يؤمن المريض أنها حقيقة واقعة ولا يقبل التشكيك فيها أو نقاشها. ومن أكثر هذه التوهمات شيوعا توهم الاضطهاد حيث يشعر المريض بأنه مراقب ومضطهد ومعرض للخطر أو القتل. وكثيرا ما يعتقد المريض أن هناك مؤامرات تحاك ضده من قبل الأقارب أو الشرطة أو أناس آخرين. وقد يكون ذلك - حسب اعتقاده- نتيجة لعظمته التي استمدها من كونه عالما فريدا أو مخترعا أو كونه نبيا بعثه الله برسالة معينة. ومن التوهمات أيضا أن يعتقد المريض أن أفكاره أو حركاته مسيطر عليها من قبل قوة خارجية كأقمار صناعية أو أجهزة مختلفة تبعث تياراً كهربائياً أو أشعة سينية تتحكم في أفكاره وتصرفاته. وكثيرا ما يعتقد المريض أن أفكاره تذاع ليسمعها الغير دون أن تكون لديه القدرة على التحكم في ذلك. كذلك قد يشعر المريض أن الناس أو التلفاز أو الصحف تتكلم عنه وتنشر أخباره.

ويبدو كل ذلك واضحا في حالة وفاء التي كانت تعتقد بأنها مضطهدة ومراقبة ولا تقبل أن يشكك أحد في ذلك. فكانت تثور مثلا بصورة مبالغ فيها إذا أبدت سيدة البيت التي لجأت لها أي استغراب أو تشكيك فيما تقوله، وتشك في أن الخادم يراقبها. وكانت تعتقد أيضا أن الوجيه يلاحقها أينما ذهبت حتى في

الحفلات النسائية مما جعلها تحس بأنها معرضة للخطر، وتخشى أن يرغمها الوجيه على ترك أولادها والذهاب عنده. وكانت كذلك تعتقد بأن هناك مؤامرة تحاك ضدها من قبل زوجها الذي أوقعها في مؤامرة عَقْد صفقةٍ مع الوجيه على أن يزوجه إياها، وأن للتلفاز تأثيراً خاصاً علَيها حيث ترى وتسمع معاني وإشارات خاصة لها. فكان الوجيه يكلمها من خلال التلفاز ويردد لها عبارات لا يسمعها غيرها، ويتمتم لها بتحريك شفتيه والنظر إليها بنظرة خاصة لا يلحظها أحد سواها، بل كان يهددها بطلبها لبيت الطاعة.

٦ - إضطراب في الكلام الذي يعكس اضطراب التفكير حيث أن الكلام هو الوسيلة للتعبير عما يدور في الذهن من أفكار واعتقادات. ويأتي اضطراب الكلام في صور مختلفة أهمها:

أ- عدم ترابط الكلام بحيث تكون الجمل غير ذات صلة ببعضها، ولا ينقل الكلام أي معنى أو مغزى. **ويتضح ذلك من كلام وفاء الذي كان غير مترابط وهي تردد كلمات غير ذات معنى، وتتمتم بكلمات مفككة مبهمة لا تلتقط منها سيدة البيت إلا بضع كلمات.**

وكثيرا ما يبدأ كلام المريض بجملة ذات علاقة عما سُئل عنه ويتفرع إلى مواضيع أخرى قد يربطها بالموضوع الأصلي تشابه فى الكلمات دون المعنى. وقد يصل هذا الاضطراب لدى المريض إلى درجة أن الكلام يكون خليطا من الكلمات التي لا تمت بصلة لبعضها البعض، وهذا ما يعرف بسلطة الكلمات. كما يمكن أن يكون كلام المريض مكونا من كلمات غريبة غير ذات معنى ولا تعني شيئا لأحد غيره.

ب - إنقطاع في الكلام لمدة ثوان او دقائق، ويأتي ذلك فجأة أثناء حديث المريض، ويفسره بأن أفكاره قد توقفت وأصبح ذهنه خاليا تماما منها. وقد يعتقد أن قوة خارجية قد سحبت كل أفكاره من رأسه دون أن تكون لديه القدرة على السيطرة على ذلك.

ج - فقر في محتوى الكلام، إذ على الرغم من الاستماع لبعض مرضى الفصام لعدة دقائق فإنه لا يمكن للمستمع الحصول على أية معلومات ذات معنى أو علاقة بموضوع الحديث.

د - تطاير الأفكار، حيث يقفز المريض في كلامه من موضوع إلى آخر دون أن يكون هناك ترابط أو وصل بين المواضيع أو الأفكار المختلفة.

هـ - الصدى الكلامي. ويتميز هذا النوع بقيام المريض بتكرار كلام من معه من الأشخاص، فمثلا قد يسأل الطبيب المريض "كيف حالك اليوم ؟"، فيرد المريض "كيف حالك اليوم ؟ ".

وقد يكون مريض الفصام غير قادر على السيطرة على عواطفه أو تصرفاته أو الحد من اندفاعه، كأن يرمي بطعامه على الأرض فجأة أو يكسر طبقا دونما سبب واضح، **تماما كما حدث مع فوزية التي صرخت في وجه والدتها واتهمتها بأنها تريد الخلاص منها بإرسالها إلى لندن، و ثارت مرة أخرى ورمت بالمزهرية على الحائط قبل سفرها، كما مزقت ثياب والدتها عند اقتراب موعد سفر أخيها. وكانت أيضا تضرب أبناء خالها الصغار متوهمة أن خالها يحرضهم عليها. إلا أنها حضنت والدتها وودعتها بالدموع عندما اقترب موعد سفرها.**

وقد تأتي الكثير من هذه التصرفات نتيجة لاستجابة المريض لما يسمعه من هلوسات سمعية أو ما يعايشه من أوهام وتخيلات. وقد يصل الحد به إلى محاولة الانتحار، فمن المعروف أن حوالي ٤٠٪ من مرضى الفصام يحاولون الانتحار وينجح في ذلك حوالي ١٠٪ منهم. إلا أنه ليس هناك دليل على ارتفاع نسبة ارتكاب الجرائم أو القتل لدى هؤلاء المرضى مقارنة بنسبتها بين عامة الناس.

ومع وجود جميع هذه الأعراض لدى مريض الفصام، إلا أنه يبقى محتفظا بذاكرته على الرغم من أنه قد يكون فاقدا لبصيرته فلا يعي أنه مريض.

سير المرض:

يبدأ المرض عادة في سن مبكرة بظهور أعراض عامة غير محددة تتوالى بعدها بقية الأعراض بالظهور تدريجيا مما قد يستغرق عدة أشهر. وقد تتزامن بداية المرض مع وقوع حدث في حياة المريض كوفاة أحد الأقارب أو الانتقال إلى بلد آخر للدراسة أو العمل. ومن هنا جاء الاعتقاد الخاطىء لدى بعض الناس أن هذا الحدث هو الذي سبب المرض. ويتميز الفصام بفترات تزداد فيها حدة الأعراض على الرغم من مواصلة المريض للعلاج يعود بعدها المريض للتحسن تدريجيا إلا أنه لا يرجع عادة إلى حالته الأصلية قبل الإصابة بالمرض، ويبقى ضعيفا في تحمله لضغوط الحياة المختلفة. وقد يصاب بعض المرضى بنوبات اكتئاب حادة بعد إصابتهم بالفصام مما يستدعي علاجهم من الاكتئاب أيضا.

ويتسبب الفصام في تدهور قدرات المريض العقلية والاجتماعية. ويصل هذا التدهور أقصاه خلال السنوات الخمس

الأولى تصل بعدها حالة المريض إلى مستوى مستقر. إلا أن المريض عادة ما يبقى بدون هدف معين في حياته، منعزلا عن المجتمع و قليل الإنتاج، وقد يصل الحال به إلى التشرد والفقر. وكثيرا ما يحتاج مريض الفصام للدخول إلى المستشفى لتلقي العلاج اللازم لمكافحة مرضه. وعلى الرغم من كون الفصام مرضا مزمنا إلا أن نسبة الشفاء منه، كما أشارت بعض الدراسات، تتراوح بين ١٠٪ و٦٠٪. وأنّ من المرجح أن باستطاعة حوالي ٢٠-٣٠٪ من المرضى أن يعيشوا حياة طبيعية إلى حد ما، بينما يستمر حوالي ٢٠-٣٠٪ منهم في المعاناة من أعراض متوسطة الحدة و٤٠-٦٠٪ من أعراض أكثر حدة مدى الحياة.

العلاج:

يحتاج كثير من مرضى الفصام إلى الدخول للمستشفى لتلقي العلاج وخاصة في بداية ظهور المرض وأثناء نوباته الحادة. ومن أهم الأسباب التي تستدعي إدخال المريض للمستشفى ما يلي:

١ - مراقبة المريض والتعرف على أعراضه وسلوكه للمساعدة على التوصل إلى التشخيص الصحيح.
٢ - إعطاء العلاج اللازم وتحديد جرعة الدواء التي يحتاجها المريض للتغلب على أعراضه والشفاء من مرضه.

٣ - عدم قدرة الأهل أو الناس المحيطين بالمريض خارج المستشفى على تحمل سلوك المريض وتصرفاته الغريبة أو المخربة.

٤ - عدم قدرة المريض على الاعتناء بنفسه ونظافته الشخصية أو امتناعه عن الأكل والشرب مما قد يسبب خطرا على حياته.

٥ - حماية المريض ووقايته خشية إقدامه على الانتحار أو إيذاء الآخرين من حوله.

٦ - مساعدة المريض على التأقلم مع حالته المرضية وتأسيس صلة بينه وبين مجتمعه والناس في بيئته.

٧ - تأهيل المريض وتدريبه لاسترجاع قدراته ومهاراته وخاصة تلك التي تتعلق بصلاته مع الناس من حوله وعلاقاته معهم والاعتناء بنفسه واحتياجاته.

٨ - تثقيف أهل المريض بالمرض ومضاعفاته وكيفية التعامل مع المريض لمساعدته على التأقلم والعودة لبيئته.

ومن وسائل العلاج المتبعة ما يلي:

١ - العلاج بالأدوية:

وهناك أنواع عدة من الأدوية التي تعطى لعلاج هذا المرض من أكثرها شيوعا ما يلي:

، لارجاكتيل

، ستيلازين

، هلوبيريدول

ميلاريل,

, برروليكسين

, كلوبيكسول

, ليبونيكس .

وعادة ما تعطى هذه الأدوية على شكل أقراص يتعاطاها المريض مرة أو أكثر يوميا. إلا أن كثيرا من المرضى لا يواظب على أخذ الدواء بانتظام، وخاصة حين يبدون كأنما تماثلوا للشفاء، فيتوقف الأقارب عن حثهم وتشجيعهم على تناول دوائهم. ولعل من أهم أسباب انقطاع المريض عن تعاطي العلاج هو فقده لبصيرته بأنه مريض وبالتالي اعتقاده بعدم حاجته لأخذ الدواء وخاصة إذا ما تطابق ذلك وما قد يتوهمه المريض من أن الدواء الذي يأخذه هو سم يؤثر على حياته.

وحرصا من الطبيب على استقرار حالة مريضه والتأكد من أخذه العلاج اللازم، فإنه قد يلجأ إلى إعطائه الدواء بواسطة حقنة تحوي نوعا من نفس الدواء ذا مفعول طويل الأمد. ومن المعروف أن هذا النوع من الدواء يتركز في الأنسجة الدهنية في الجسم بعد حقنه، تقوم بعدها هذه الأنسجة بإعادته تدريجيا وببطء إلى مجري الدم الذي يحمله إلى الجهاز العصبي ليعطي مفعوله العلاجي. وتُعطى هذه الأدوية على فترات تتراوح بين أسبوعين وأربعة أسابيع أو أكثر. ومن أمثلة هذا النوع من الأدوية الآتي:

موديكيت,

ديبيكسول ,

هلوبيريدول .

الآثار الجانبية للأدوية:

كما هي الحال مع الأدوية الأخرى فإن للأدوية التي تستخدم في علاج الفصام آثار جانبية يجب على المريض ومن حوله التعرف عليها حتى لا يثير ظهور أي منها قلقهم أو خوفهم، إلا أنه من المهم التأكيد على أن معظم هذه الآثار وقتية تزول خلال أيام قليلة ولا يستلزم ظهورها إيقاف الدواء. ومن أهم هذه الآثار الجانبية ما يلي:

- الخمول والنعاس، ولهذا يعطي الطبيب المعالج معظم الجرعة الدوائية أو كلها عند النوم.

- جفاف الحلق والإمساك وزغللة النظر، وينصح لأجلها بتكرار المضمضة لترطيب الفم والإكثار من شرب السوائل وتناول الخضروات والأطعمة الغنية بالألياف لتفادي الإمساك. كما لا ينصح بالسياقة أو تشغيل آليات عند ظهور هذه الأعراض.

- إنخفاض ضغط الدم، ويحدث عادة عند تغيير المريض لوضعه بصورة مفاجئة كأن يجلس بصورة مفاجئة بعد استلقاء أو يقف بعد جلوس فيشعر المريض عندها بدوار قد يؤدي به إلى فقد

توازنه. ولتفادي ذلك يجب أن يراعي المريض عدم تغيير وضعه بصورة مفاجئة.

- زيادة الوزن عند بعض المرضى قد لا يكون بالضرورة ناتجا عن الإكثار من تناول الأكل.

- اليرقان وعادة ما تسبقه أعراض شبيهة بتلك التي تنتج عن الأنفلونزا.

- حصر البول والعجز الجنسي لدى الرجال واضطراب العادة الشهرية لدى النساء.

- حساسية في الجلد تزداد عادة عند التعرض لأشعة الشمس.

ويتعود جسم المريض على معظم هذه الأعراض أو كلها خلال أيام معدودة. وهناك أيضا أعراض جانبية عصبية تنتج عن استعمال هذه الأدوية ويستدعي علاجها أو تفاديها إضافة أنواع أخرى من الأدوية مثل:

, كوجنتين

,آرتين.

وتشمل هذه الأعراض الآتي:

- خلل التوتر العضلي، وينتج عنه تشنج عضلي قد يصيب عضلات الرقبة أو الجذع أو اللسان أو العين.

- أعراض باركنسونية تشبه أعراض مرض الشلل الرعاشي وتتميز بتصلب العضلات واضطراب المشي وزيادة إفراز اللعاب ورجفة في اليدين وبقية المفاصل.

- زَلَز أو توتر الجلوس، ويتميز بشعور المريض بقلق بالغ وتململ عند جلوسه، فلا يستطيع الجلوس لمدة طويلة، ولهذا فهو دائم الحركة والتنقل.

- خلل الحركة المتأخر، و يشمل حركات لا إرادية عشوائية وغير طبيعية تصيب عضلات الرأس والأطراف والجذع. ومن أكثرها شيوعا تلك التي تصيب عضلات الفك فيبدو المريض وكأنه يعلك على الرغم من أن فمه خال من الطعام.

٢ - العلاج بالصدمات الكهربائية:

يعطى هذا العلاج في بعض الحالات وخاصة لمرضى الفصام الذين تغلب عليهم أعراض حادة أو تخشبية أو اكتئابية، حيث يؤدي إلى نتائج علاجية مقاربة لتلك التي يعطيها العلاج الدوائي.

٣ - العلاج النفسي:

لا يلعب العلاج النفسي دورا أساسيا في علاج مريض الفصام كما هو الحال مع الأمراض النفسية الأخرى. إلا أنه يمكن أن يكون مكملا للعلاج الدوائي، إذ بدون الدواء لا يستطيع المريض التجاوب مع من يعالجه وخاصة إذا كان فاقدا لبصيرته. ويركز العلاج

النفسي على تقوية ثقة المريض بنفسه وصلته بالواقع الذي يعيش فيه مع من حوله. ويستخدم الطبيب المعالج هذا العلاج أيضاً لكسب ثقة مريضه، وبالتالي احترام إرشاداته واتباعها. ويستطيع الطبيب بواسطة هذا العلاج تغيير سلوك المريض إلى ما هو أفضل وإكسابه مهارات اجتماعية تمكنه من العيش في مجتمعه والتأقلم معه.

ويمكن تقديم العلاج النفسي للمريض بمفرده أو من خلال العلاج الجَماعي مع مجموعة من مرضى يعانون من نفس المرض. وفي هذا النوع من العلاج يلتقي مجموعة من مرضى الفصام ويتحدثون عن مرضهم وأعراضهم وما يتلقونه من علاج وما يصادفهم من عقبات ومشاكل. وبذا يستطيع المريض التعود على مشاركة الآخرين أفكاره وما يشعر به من أعراض، وبالتالي اكتساب معرفة أكبر بمرضه، مما قد يؤدي إلى استرجاعه لبعض من بصيرته أو كلها. وكثيرا ما يكون العلاج الجَماعي أكثر فائدة للمريض حيث يلقى الدعم والمساعدة من نظرائه فلا يشعر بالعزلة ويتمكن من التأقلم في مجتمعه.

التأهيل ودور العائلة:

يشترك الأهل مع الطبيب والفريق المعالج في تحمل مسئولية علاج المريض وتأهيله ليلعب ما يناسبه من دور في مجتمعه. ويبدأ دورهم مع بداية معاينة الطبيب للمريض. عندها يتوجب على الطبيب أن يخصص وقتا كافيا ليشرح للأهل طبيعة المرض وسيره ومضاعفاته والعلاج الذي يمكن أن يقدمه وما قد يسببه من أعراض جانبية ومضاعفات وما يمكن لهم أن يقدموه للمريض لمساعدته للتغلب على مرضه.

وعلى الأهل أن يتفهموا حالة المريض وما يعانيه من أعراض حيث سيمكنهم ذلك من تقديم العون والدعم اللازمين. ويأتي دور العائلة في الأساس من خلال مراقبتهم لمريضهم والتأكد من أخذه العلاج اللازم بانتظام واتباع إرشادات الطبيب المعالج، وخاصة إذا لم يبد المريض ذا أهلية وثقة في أخذه الدواء بمفرده. كما يجب عليهم التنبه لمعاودة أعراض مرضية سابقة أو ظهور أخرى جديدة وإبلاغها للطبيب المعالج كي يتسنى له عمل اللازم. ولا يجب أن تكون مراقبة الأهل للمريض بصورة تشعره بعجزه أو اختلافه عمن حوله أو تلقي عليه عبئاً لا يتناسب مع قدراته العقلية والعاطفية والاجتماعية.

وتقع مسئولية علاج مريض الفصام وتأهيله على المجتمع أيضا الذي يجب عليه تقبل الأمراض النفسية كما يتقبل الأمراض الأخرى. ففي حين يقدم الطبيب العلاج المناسب، يبدأ تأهيل المريض اجتماعيا وحرفيا في المستشفى حيث يتلقى التدريب في برامج العلاج بالعمل. وعلى المؤسسات المعنية في المجتمع مواصلة هذا التأهيل للمريض من خلال توفير فرص التعليم والتدريب والعمل المناسب لطاقاته وقدراته ليتمكن من لعب دوره في مجتمعه والمحافظة على إنتاجيته.

الفصل الثاني

(١)

ظبية الحي الجميلة

الأيام، تلك اللعبة الصعبة في معادلة الزمن، تحمل في جعبتها التناقض والتلاحم، فتجمع الأضداد وتفرق الأحبة وتحيل ظروف الحياة إلى أفراح ومآس وفراق ولقاء. وقد جمعت الأيام والظروف الصديقين محسن وخالد، وربط بين قلبيهما رباط الصداقة والحب ثم تقلبت بهم السنون بين فراق وغربة. وحين عادت بهما الأيام للقاء ثانية جمع الحزن والألم بين الصديقين كما فعل الحب والصداقة.

كان رباط الصداقة بين محسن وخالد رباط طفولة وشباب، يجمعهما حي واحد ومدرسة واحدة وشلة من فتيان الحي وفتياته وارتباط قوي بتراب الأرض وحجارة بيوته. كان محسن الابن الأكبر لأسرة ميسورة الحال تسكن أحد أفخم البيوت في ذلك الحي الشعبي. وكان كحال الفتيان في جميع الأحياء الصغيرة يعرف

بقية فتيان الحي وفتياته وما يجري داخل البيوت الصغيرة المنتشرة على جانبي الشارع الضيق وهكذا كان حال بقية أترابه وأصدقائه.

أما خالد فكان يختلف عن بقية فتيان الحي في الجري خلف أسرار بيوت الحي وخفاياها حفاظا على أسرار بيته وأخبار عائلته الصغيرة رغم إلحاح محسن واستعمال مختلف الأساليب معه.

كان التصاق الصديقين قويا حميما في شتى جوانب حياتهما المدرسية منها والاجتماعية بخلاف نقطة واحدة حافظ خالد جاهداً على الامتناع عن الخوض فيها وهي الحديث عن بنات الحي وأخبارهن حتى لا يمس أحد سيرة أخواته أو سيرة سهام التي كانت هدفا لإعجاب معظم شباب الحي وعلى رأسهم صديقه محسن.

أنهى الصديقان دراستهما الثانوية فسافر محسن إلى لبنان لدراسة الطب في الجامعة الأمريكية بعد حصوله على بعثة حكومية، بينما سافر خالد في بعثة لدراسة الاقتصاد في مصر، وانقطع الاتصال بين الصديقين عقب سفر محسن إلى الولايات المتحدة للتخصص في الطب النفسي، بينما عاد خالد إلى وطنه بعد حصوله على شهادة في علم الاقتصاد.

كان خالد الابن الثاني في عائلته بعد أخت تكبره بأعوام. وكان والده صارما شديد التزمت وخاصة تجاه الفتيات والنساء في عائلته، لا يسمح لأي منهن بالخروج من البيت إلا بصحبته أو بصحبة والدتها؛ ولهذا شعر خالد منذ بداية نشأته بتفوقه على الإناث في عائلته لدورهن الصامت في الحياة ولإذعانهن دوما

للأوامر التي يصدرها ذكور العائلة. ومع ذلك شعر خالد بكثير من الحزن والامتعاض حينما تزوجت أخته الكبيرة عائشة، وكانت آنذلك في السادسة عشرة من عمرها من رجل يكبرها بعشرين عاما دون أن تبدي رأيها أو تعترض. وكانت وسيلتها الوحيدة في الشكوى والاعتراض الحزن والدموع حتى بعد زواجها وإنجابها من ذلك الرجل. حتى سكن الحزن قلبها واعتادت الصمت والخضوع للرجل الجديد في حياتها المنوط بحمايتها ورعايتها بعد أبيها.

كان لخالد حياته الخاصة خارج البيت يختلط بأصدقاء المدرسة والحي يشاركهم لعبهم ولهوهم البريء كالكرة أو الذهاب إلى النادي أو إحدى دور السينما. وعند لقائهم يبدأ أحد الشباب، كعادة الشباب حينما يجتمعون، بالحديث عن فتيات الحي وأخبارهن... فهذه تقابل فلاناً سراً، وتلك كانت تحدث شابا غريبا عن الحي خلف المدرسة. وكان محسن يستمع أو يروي هذه الأخبار وكأنها أهم هواياته واهتماماته تدغدغ أحلامه وشبابه وتعطيه رصيد معرفة يزداد يوما بعد يوم عن فتيات الحي وأسرارهن. وكان خلال تجواله في السؤال عن هذه أو تلك يحاول أن يلتقط المزيد من الأخبار عن تلك الفتاة الشابة التي أصبحت تغزو قلوب شباب الحي جميعا دون ترصد واستئذان. أما بالنسبة لخالد فقد كان الحديث عن نساء عائلته عورة والحديث عن بقية فتيات الحي حراما وغيبة خاصة عندما يبدأ الشباب بالحديث عن ظبية فتيات الحي ووردته المتفتحة سهام.

كانت سهام كبرى بنات إحدى الأسر المعروفة في الحي، وكان والدها تاجرا ميسور الحال لا يبخل على أهل بيته في حدود إمكانياته، لكنه عرف عنه الفظاظة في معاملة الآخرين، كما كان

فظا في معاملته لأسرته. ولطالما سمعت سهام وإخوتها الصغار صوته يزمجر في أرجاء البيت كي يفرض سطوته الكاملة على زوجته وبناته الثلاث وولده الوحيد نبيل.

وكانت الأم مثالاً للزوجة المطيعة المحافظة على كيان أسرتها تحاول بشتى الوسائل أن تخفف من ثورات زوجها بحكمتها وصبرها الطويل كي لا تعمق هوة الجفاء بين الأب وأبنائه. وفجأة مرضت الأم بمرض عضال ألزمها الفراش بضعة أسابيع قبل أن تفارق الحياة. بكت العائلة الأم التي أفنت حياتها من أجلهم، وبكت سهام أمها بالدموع والدماء... فبين ليلة وضحاها أصبحت ابنة الخامسة عشر ربيعاً امرأة في الأربعين يقع على كاهلها عبء إدارة البيت والعناية بالأسرة، بالاضافة إلى عبء واجباتها المدرسية.

واتبعت سهام أسلوب أمها في تدبير أمور ومعالجة قسوة أبيها الذي ازداد عصبية وفظاظة في معاملة أبنائه وخاصة سهام، يحاسبها على أية هفوة أو تقصير، وكانت كلما ازداد الأب قسوة وتعنتا ازدادت سهام بذلا وعطاءً، حتى أصبحت المسؤوليات تتعاظم على كاهلها يوما بعد آخر مع غياب والدها عن البيت طوال النهار ومعظم الليل. وفي نهاية العام الدراسي رسبت سهام في المدرسة، فغضب الأب وهدد وتوعد بأنه سيحرمها من التعليم رغم رغبته في إكمال دراستها الثانوية. وبكت سهام حتى بللت بدموعها كفيه ورجته أن يعطيها فرصة أخرى، فصدمة وفاة أمها والمسؤوليات الجسام على كاهلها حدت من تفرغها للدراسة.

قال مهددا ومتوعدا:

- سآتي بامرأة أخرى تدير البيت كي تتفرغي لدراستك وإخوتك.

- لا... لن تأخذ امرأة أخرى مكان أمي في هذا البيت. سأفعل ما تأمرني به مواصلة الليل بالنهار كي أرضيك وأقوم بواجبات أخوتي.

واقترب نبيل وأخته الصغيرة من سهام وأحاطها بذراعيه فاختلطت الدموع، والأب يراقب ذلك بتأثر وحزن.

ومرت الأيام والأعوام وسهام ترعى شؤون العائلة بحب وتفان حتى اكتسبت ثقة أبيها ومحبة إخوتها. وكان نبيل الذي يصغرها بسنتين الأكثر التصاقاً بها واعتماداً عليها. فكانت له الأم الرؤوم والأب الناصح.

وتخطت سهام امتحانات الثانوية بنجاح وبدأت الأحلام تراودها بمواصلة تعليمها، وانتظرت عودة والدها كي تزف اليه الخبر السعيد. وجاء الأب في موعده المحدد والبشر يقفز من عينيه...

- لقد تزوجت يا سهام، وقد احترمت رغبتك ورغبة نبيل بأن لا أدخل امرأة أخرى بعد أمك إلى البيت. والآن وبعد أن أنهيت دراستك الثانوية ووثقت بمقدرتك على رعاية شؤون البيت، وبعد أن أصبح نبيل شابا يستطيع حمايتكم ورعايتكم في غيابي، حان الوقت كي أتزوج. وتطلع إلى وقع المفاجأة في عيون أبنائه وقال:

- سيكون لي ولزوجتي الجديدة بيت آخر كي أحافظ على ذكرى والدتكم في هذا البيت، وستكونين يا سهام الأم الراعية لأخوتك، وسيحل نبيل مكاني كرجل البيت أثناء غيابي، ولن أغفر لمن يعصي أو يخالف أمري.

وتجاوزت سهام محنة خروج والدها من البيت وما صاحب ذلك من فراغ وخوف. ورغم تغيبه الطويل فقد كان لوجوده أو الأمل بعودته رهبة تملأ أرجاء البيت وحوائطه. وكانت في سرها تعلم أن والدها سيتزوج يوما وتخشى في نفس الوقت أن يأتي بالمرأة الأخرى لتحل محل أمها وتستولى على مكانتها في قلوب إخوتها ووالدها. ولهذا تجاذبتها عند سماعها نبأ زواج أبيها أحاسيس متناقضة تتأرجح بين السعادة للحرية التي ستنعم بها في غياب سلطة أبيها وبين الخوف والرهبة من نتائج تلك الحرية وعواقبها على حياتها في المستقبل. وكانت سهام خلال سنوات دراستها الأخيرة قد أخذت تتمتع بقدر من الحرية لفتاة في سنها، إذ كانت المدرسة وسيلتها للخروج من البيت والهرب من قيد الأمومة الذي فرض عليها عنوة. وهناك مع الزميلات كانت تمارس حياة الشقاوة بحنكة من مر بتجارب مرة قاسية. فتصب غضبها وانتقامها دوما على الفتيات اللواتي يتراءى لها أنهن يتمتعن بحياة عائلية هانئة، فتكيد لهن المكائد بالنميمة واختلاق الأكاذيب عنهن كي تسيء لهن عند المدرسات أو الناظرة. وفي داخل الفصل كانت تجلس صامتة هادئة تستمع باحترام وشرود إلى كلمات المدرسة، وكان هدفها الوحيد هو ارضاء المدرسة والحصول على درجات دراسية عالية.

وحين تزوج والدها وانتقل للعيش مع زوجته وبالتالي انتهى دور المدرسة في حياة سهام أصبحت الحرية حقا مكتسبا لها تمارس من خلاله طفولتها وشبابها الضائع بعلاقات مع صديقات غريبات عن الحي كله يتمتعن بما تتمتع به من حرية وانطلاق، حتى أصبح مألوفا أن تخرج سهام بصحبة هذه الصديقة أو تلك برفقه شقيق هذه أو قريب تلك مع حرصها دوما على العودة إلى البيت قبل

رجوع أخيها نبيل وأختيها الصغيرتين من المدرسة. وانتشر الحديث واللغط عن سلوك سهام بين فتيات الحي وشبابه حتى ابتعدت عنها صديقاتها القدامى قسرا أو تدريجيا. فما أن تتزوج إحداهن حتى تبدأ بالقطيعة مع سهام مختلقة الأعذار الواهية خوفا على زوجها من الافتتان بجمالها وسحر حديثها. ووصل بعض اللغط إلى أذن أخيها نبيل فعاد إلى البيت ثائرا تغلي في عروقه دماء الشباب.

- أين تذهبين كل يوم يا سهام؟

- أخرج لقضاء حاجات البيت التي لا تنتهي، فهل أصبح خروجي من البيت خطيئة؟ فوالدك لاه بزوجه وأطفاله الجدد وأنت في مدرستك طوال النهار بينما أقوم أنا لوحدي بدور الأب والأم....

- وهذا الذي أسمعه أو أراه في عيون الشباب من غمز ولمز وكأنها ترمقني باتهام ينتقص من رجولتي وشبابي؟

- إنهم يدبرون المكائد لي لعزوفي عنهم جميعا، فأنا أشرف من أخواتهم حتى لو تسترن خلف ألف باب وحجاب. فأنا لم أعد طفلة يا نبيل. لقد تعديت العشرين منذ سنتين ولم أعرف الزلل والخطأ، فهل يتبادر إلى ذهنك أي شك بي وأنت أكثر الناس التصاقا ومعرفة بي؟

وانهمرت الدموع من عينيها، فأحاطها نبيل بذراعيه.

- إطلاقا ولو للحظة واحدة يا سهام... لكنني لا أقوى على مجابهة نظرات عيون شباب الحي ورجاله.

وجاء والد سهام كعادته في نهاية كل شهر ليتفقد حال أولاده ويعطيهم ما يلزم من مصروف البيت، فرأى سهام منهمكة في تنظيف البيت وإعداد ما يحب من الطعام، كعادتها دوما في موعد زيارته، كأنها تستحثه على المزيد من البذل والعطف عليها وعلى إخوتها. وبعد أن تناول الجميع طعام الغداء، جلس الأب بين أبنائه يحدثهم في أمور حياتهم ودراستهم، فأثنى على الجهد الذي يبذله نبيل في دراسته وحثه على بذل المزيد فالامتحانات على الأبواب وتقديره في الثانوية العامة سيؤهله للانتساب للجامعات المناسبة. قال له وهو يحيطه بنظرات الفخر وحنان الأبوة:

- أتوسم بك يا نبيل وأنت وحيدي أن تواصل تعليمك وتحقق ما لم أستطع تحقيقه في شبابي. فالكثيرون من أبناء أصدقائي قد حققوا أماني آبائهم بالوصول إلى المراتب العليا في الحكومة والوظائف الأخرى بعد حصولهم على شهادات جامعية عالية.

- لكن تكاليف الدراسة والحياة في الخارج ستكون عبئا جديدا عليك يا أبي. بالإضافة إلى إعالة أسرتين.

- صدقت يا ولدي... فالعمر يجري مسرعا وأنماط المعيشة باتت أكثر صعوبة وتعقيدا، ومع ذلك فقد هان الأمر ولم يبق من العمر قدر ما مضى ومصيرنا أن نعيش جميعا تحت سقف واحد.

وشهقت سهام شهقة تصدعت لها جدران قلبها، أتبعتها بضحكة هستيرية مجلجلة ثم قامت بهدوء وسارت نحو غرفتها ونظرات والدها وأخيها تتبعها بذهول وعجب. وصرخ الأب غاضبا:

- سهام... سهام...

لكن نبيل هدأه بقوله:

- دعها يا أبي فلي معها عقب ذلك حديث طويل.

وأغلقت سهام باب غرفتها وجلست على حافة السرير وجسدها ينتفض كريشة في مهب الريح. وقالت تحدث نفسها بصوت مسموع: "لقد ظهرت نواياه اليوم واضحة. إنه يريد أن يقوض بيتي على رأسي، فيزوجني أولا من قريب زوجته الكهل ويبعد نبيل عني ثم يأخذ الصغيرتين هالة وفاطمة كي يهدم أحلام أمي وذكراها؛ كي يلبي طلبات زوجته التي لا تنتهي؛ وكي يحرمني بيتي وإخوتي وحريتي".

وقد سبق للأب أن فاتح ابنته مرات عديدة بشأن زواجها من رجل من أقرباء زوجته، وكانت سهام في كل مرة تتعلل بالمسؤولية الجسيمة التي تقع على كاهلها وبأنها لا تفكر بالزواج حتى يتم نبيل دراسته وتتزوج الصغيرتان، فيؤنبها والدها ويحثها على أن تفكر في مستقبلها فقط، وإلا سيفوتها القطار وتندم ولات ساعة مندم.

في أعقاب تلك الحادثة أصبحت سهام تخلو إلى نفسها في البيت لساعات طوال أو تهيم على وجهها في الشوارع تحدث نفسها وتبحث عن مخرج لورطتها تلك، فهي لن تتزوج من قريب زوجة أبيها ولن ترضى أن تعيش في كنف امرأة أخذت مكان أمها في قلب أبيها وبيته.

ومرت الأيام وتراءى لنبيل أن الأمور عادت تسير كسابق عهدها، فأخته ترعاه وتسهر الليالي قربه وهو منكب على الدراسة،

وتساعد الصغيرتين في دروسهما بحنان فاق حنان الأم وعطائها. وخفى عنه العذاب الذي كان ينهش قلب أخته والدموع التي كانت تبلل بها وسادتها وعيناها معلقتان في سقف الحجرة طوال الليل، تعاني من التمزق والضياع وتتجاذبها الأحاسيس المتناقضة، فتارة تشعر بالسعادة لإصرار نبيل على التفوق والنجاح، وتارة أخرى تتمنى له الفشل في امتحاناته ليظل بقربها. وغالبا ما كانت تشعر بوخز الضمير والعذاب... كيف تتمنى الفشل لأخيها، لابنها الروحي، وقد رأته يكبر أمامها شبرا شبرا وعاما بعد آخر. لكن نجاحه يعني سفره إلى الخارج ويعني الرضوخ لحكم أبيها بالعيش مع زوجته في بيت واحد أو قبول العريس الذي يكبرها بأعوام كثيرة.

ونال نبيل منحة دراسية في الخارج بعد حصوله على نتائج جيدة في امتحانات الثانوية العامة، فتركت سهام الحزن جانبا لكي تقطف ثمار السنوات الماضية. وذات يوم طلب نبيل من سهام أن تحضر له بعض الأوراق من وزارة التربية؛ لأنه على موعد مع الطبيب لاجراء فحص طبي شامل له وهو أمر مطلوب عند التحضير لبعثة في الخارج. قال لها راجيا:

- ما عليك سوى مراجعة موظفة تدعى "ليلى " تعمل في مكتب البعثات التابع لمكتب الأستاذ خالد.

- الأستاذ خالد؟

- أجل خالد، ابن جارتنا أم خالد التي تركت هذا الحي بعد وفاة زوجها وذهبت للسكنى مع ابنها وابنتها في مسكنها الجديد.

وسكتت سهام لبرهة كي تعود بذاكرتها إلى الوراء. وصاحت قائلة:

- خالد ذلك الشاب المتزمت الذي أجبر أخته عائشة على ترك المدرسة بعد المرحلة الابتدائية كي تتزوج.

- لا تظلمي الرجل. فأمر البيت كان في قبضة والده الذي كان يؤمن بسجن نساء وأهل بيته بين جدران أربعة، أما خالد فقد ذهب إلى مصر ونال درجة جامعية في الاقتصاد وهو يعمل الآن مساعدا لرئيس البعثات في الوزارة.

وسكت نبيل لبرهة ثم قال :

- دعك منه... فلدى الرجل مسؤوليات كثيرة تنسيه نفسه وأهل بيته، والأوراق التي أريدها موجودة لدى ليلى في المكتب المجاور لمكتب خالد.

جلست سهام في غرفتها تسترجع ذكريات الطفولة والشباب، وبرز أمام مخيلتها صورة للصديقين محسن وخالد... الثنائي الذي كان لا يختلف في شيء سوى في نظراتهما اليها. كانت نظرات خالد خجولة مترددة تسقط إلى الأرض أو تضيع في الفراغ، بينما كان محسن يلاحقها بنظراته الجريئة، وكانت عندئذ تجد لذة قصوى؛ لأنها جمعتهما وفرقتهما بالاهتمام والإعجاب بها كل على طريقته الخاصة. وقالت تحدث نفسها: "لابد أنه تزوج من مصر كما فعل محسن في أمريكا أو أنه يبحث عن زوجة تكون نسخة طبق الأصل عن والدته أو شقيقته لا تعرف من الحياة الزوجية سوى الطاعة العمياء لسيدها الرجل". لكن ذكريات الطفولة والشباب لا

تمحوها السنون والأيام وقد يصبح خالد واعجابه القديم والخجول بها قشة النجاة في حياتها تنتشلها من علاقات هوائية عارضة وتبعد سيطرة والدها وزوجته عنها.

دخلت سهام المكتب المحدد في صباح اليوم التالي فحيت ليلى وموظفة أخرى كانت تجلس بقربها واتجهت إلى الباب المؤدي إلى مكتب خالد فقرعته بلطف وفتحت الباب، ثم حيّت الرجل الجالس خلف الطاولة بأدب واحترام وعرّفته بنفسها كشقيقة "نبيل محمد"، وأنها تود الحصول على الأوراق اللازمة لبعثة أخيها الذي تأخر عن المجيء بنفسه لانشغاله بأمر هام. ونظر خالد طويلا وذاكرته تعود لخيالات الشباب قائلا:

- تفضلي... ريثما أحضر لك الأوراق.

وجلست سهام وأخذت تقلب صفحات مجلة كانت تحملها، ثم رفعت ببصرها إليه كأنها تستحثه لأنها في عجلة من أمرها. ونظر إليها خالد طويلا وقال وكأنه يحدث نفسه:

- تبا للغربة والجفاء... فهل قسا الزمان عليّ فغيرني حتى غفل عني أهلي وأبناء جيرتي؟

ورمقته سهام بنظرات التعجب لجرأته في الحديث معها فتجاهل نظراتها وأردف قائلا:

- ما كنت لأتجرأ في الحديث هكذا مع فتاة أجهلها، لكنني عرفتك طفلة يا سهام، تلعب مع بقية أطفال الحي، فأنا خالد ابن جارتكم أم خالد وشقيق صديقتك عائشة. وحين رأيت نبيل هنا في

الوزارة سألته عنكم وعرفت أخباركم كلها، فالإنسان مهما تقلبت عليه الأيام لا ينسى مرتع طفولته وشبابه. واليوم حين دخلت المكتب رأيت بك سهام التي عرفتها منذ سنوات طوال.

وتظاهرت سهام بالمفاجأة لهذه الصدفة الغريبة، فسألته عن أخبار والدته وأخواته... واستمر الحديث حتى نظرت إلى ساعتها، وقامت على عجل متعللة بأن الوقت قد سرقها، وأنها يجب أن تعود إلى البيت لتنهي بعض أمورها قبل عودة اخوتها، وطلب خالد منها أن تحضر في الغد كي تأخذ الأوراق اللازمة لنبيل.

وتكررت اللقاءات وتحول إعجاب خالد المترسب في قلبه منذ أيام الشباب إلى حب جارف سريع، فقد أسرته سهام بشخصيتها المتزنة القوية وبما اكتسبته من ظروف حياتها الصعبة مع المحافظة على حياء وحشمة فتيات بلده.

وتقدم خالد لخطبة سهام رغم معارضة والدته وتحذير شقيقته مبررا ما لاكته ألسنتهن عن سهام للظروف القاسية التي فرضت عليها لتسيير أمور حياتها وحياة أسرتها.

وتمت مراسيم الزواج بسرعة فائقة. وانتقلت سهام إلى بيت زوجها خالد... ومضت أشهر الزواج الأولى في حب وسعادة رغم الاختلاف والتباين الذي يكتشفه كل عروسين بعد أن يضمهما بيت واحد وسقف واحد. وشعر خالد أن جفاء والدته وشقيقته لزوجته يبرز تعنتا وكرها لا مبرر له، فانحاز بكل عواطفه نحو زوجته التي أحالت ركنهما في البيت إلى عش سعيد يأوي إليه كل مساء ليجد الحب والسعادة والطمأنينة رغم المنغصات المحيطة بهما.

قالت له عائشة ذات يوم:

- يجب أن تمنع زوجتك من الخروج من البيت كل يوم.

- وهل منعك زوجك يا عائشة من الحضور إلى البيت لزيارة والدتك؟ إن سهام بمثابة الأم لأختيها الصغيرتين وقريبا يسافر نبيل في منحته الدراسية ويضم الأب ابنتيه إلى بيته. عندئذ تتفرغ سهام لي ولبيتها فقط.

- إنك تحلم، فسهام لا تستطيع البقاء في البيت ليوم كامل. عندها ستجد الوسيلة - أية وسيلة- للخروج من البيت.

- وما الضير في ذلك؟ ما الضرر في الخروج لزيارة صديقة لها أو قريبة أم أن الحسد والكراهية قد ملآ قلوبكن - ألا يكفي أنها رضيت بالعيش هنا في بيت العائلة مع والدتك وشقيقتك؟

- أتترك والدتك تعيش وحدها بعد أن تتزوج مريم؟

- إن استمر الحال هكذا فلا حل أمامي غير ذلك.

عاشت سهام قسوة الفراق الأول بسفر أخيها نبيل إلى الخارج، ثم تلاحقت الأحداث كأنها تحكم القبض على قلبها وعقلها، فانتقلت أختاها الصغيرتان للعيش في كنف والدها وزوجته، ثم باع الوالد بيت العائلة القديم لسداد بعض الديون عليه. وتضافرت العوامل الخارجية والداخلية مما شكل ضغطا رهيبا على أعصابها فسقطت سهام صريعة الإحباط واليأس وفريسة تتقاذفها أمواج القلق والوساوس.

كانت تجلس الساعات الطوال مستلقية على السرير في غرفتها، وهي في شبه غيبوبة تامة، تحدث نفسها وتحملها ذنوب الفشل الذي أحاق بعائلتها الصغيرة، حتى تفرقت في بيوت الغرباء، بدءا من هرب أبيها إلى بيت غير بيته وامرأة غير أمها، إلى سفر أخيها وتشتت أختيها الصغيرتين وانهيار أعمدة بيت العائلة على رؤوس أصحابه عمودا بعد آخر. وكانت تتراءى لها خيالات وأشباح فتارة وجه أم خالد وطوراً وجه زوجة أبيها يضحك منتصرا، ثم يكبر الوجه حتى يملأ سقف الحجرة كلها، وتعلو القهقهة حتى تهتز جدران الغرفة حولها. ثم تشعر وكأنها تسقط في أعماق حفرة مرعبة لا قرار لها والديدان المخيفة الشرسة تحيط بها محاولة الامساك بجسدها.

فتهرع سهام إلى الحمام تفرغ ما في جوفها خوفا وقرفا، فتفتح صنبور الماء تسكب منه على وجهها، فتختلط المياه بالدموع وينحدر إلى فمها مذاق العلقم والندم... إنه عقاب السماء الذي جعل لها في بيت والدها ثم بيت زوجها من يتحكم بها وبمصير حياتها. ثم تجلس القرفصاء في ركن الحمام تندب حظها التعس وتحمله همومها، فهي ضحية أخرى كأمها التي وقعت فريسة لسطوة الرجل وغدره.

وبدأ القلق يخيم على بيت خالد والغيوم المتلبدة تلتصق بجدرانه. وغرق خالد ما بين شكوى أمه ونفورها من سهام وبين شرود زوجته وصمتها المخيف المؤلم حينا أو ثورتها إلى درجة الصراخ والبكاء حينا آخر. عندئذ كان يهرع إليها كي يحيطها بذراعيه، يحتوى ثورتها وغضبها وهي لا تتوقف عن الصراخ بكلمات مبهمة لا رابط بينها ولا وصل. ثم تسقط بين ذراعيه منهكة متعبة وكأنها في حالة إغماء فينقلها إلى السرير حيث تستلقي في صمت وعيناها شاخصتان في سقف الغرفة.

وبدأ القلق يساور خالد من سلوك زوجته وتصرفها ومن عزوفها عنه وعن الحياة من حولها. كان يعود في المساء فيجدها حيث تركها في السرير لا تشعر بدخوله أو خروجه أو تجيب عن تساؤله سوى ببضع كلمات مبهمة ضائعة.

وأسر خالد لطبيب صديق عن حالة زوجته وعن تدهورها، فطلب منه الطبيب إحضارها لإجراء بعض الفحوصات الطبية لها ثم أردف قائلا:

- وبعد التأكد من سلامة صحتها من الناحية الفسيولوجية يمكنك أن تعرضها على محسن.

- محسن؟ ومتى عاد محسن؟

- منذ بضعة أشهر عاد مع زوجته ليستقر في البلاد وهو الآن الأخصائي النفسي في أحد المستشفيات المتخصصة بالعلاج النفسي.

فذهل خالد من نبأ عودة صديقه محسن دون علمه، وقال فرحا وقد نسي آلامه:

- فلنذهب اليه الآن... إنني في شوق لرؤيته بعد الغياب الطويل. لعله يجد فينا مرضا نفسيا جديدا يتبجح باكتشافه وإضافته لعالم الطب النفسي المعقد.

وكان اللقاء بين الصديقين حميما ومؤثرا، وأعادتهما لحظات اللقاء لتلك العلاقة التي تربط الأصدقاء فتتجاوز السنوات في

لحظات خاطفة لتعود جذوتها لتتوج رباطهما بتلك العفوية والصدق ولا تنتقص من وهج حرارتها ظروف السن والحياة.

قال الطبيب لخالد:

- مبروك يا أبا الوليد... إن زوجتك سهام حامل، ونكون قد فهمنا الآن سببا لبعض تلك الأعراض التي كانت تصيبها. لكن سهام تعاني من ضعف عام ويجب أن ترعاها وتعتني بها حتى تجتاز أشهر الحمل بسلامة وأمان.

وطار خالد فرحا فسهام حامل، وقريبا سيصبح أبا كبقية أصدقائه الذين سبقوه إلى الأبوة. ومن أجل ذلك يجب أن يفكر جديا بالانتقال من بيت العائلة ليحيا حياة طبيعية مع زوجته وأبنائه، فقد قاست سهام من تعنت وكراهية والدته مما أحال حياتهما إلى جحيم وهو ضائع بين عتاب أمه وغضبها أو شرود زوجته وثوراتها كالمستجير من الرمضاء بالنار، حتى أنه تبادر إلى ذهنه في لحظات حزنه أن الخلاص من سهام - بالرغم من حبه لها وإشفاقه عليها- هو الحل الوحيد للخلاص من شقائه لأن صلة الأمومة والرحم لا فكاك منها ولا خلاص.

رفرفت السعادة في سماء بيت خالد، وأخذ كل من في البيت يتبارى في رعاية سهام والعناية بها والرضوخ لطلباتها، مهما كثرت أو تعددت، وسهام تعيش بين حلم جميل وكابوس مزعج في آن واحد تتقاذفها الأحاسيس والمخاوف. فتارة تشعر بسعادة ونشاط متدفق ينعكس على تصرفاتها، فتبادر بالقيام بكثير من أعمال البيت متجاهلة تحذير أم خالد، وفي تلك الحالة تكون في ذروة انشراحها فتقبل على كل ما يقدم من طعام وتطلب المزيد، وفي

أحيان أخرى يتملكها الخوف والاكتئاب فتلزم الفراش وتعاف نفسها كل طعام وشراب. وكانت تلك التصرفات نتيجة حتمية للأمواج التي تتلاطم داخل نفسها. فتارة تشعر بذروة السعادة وهي تتحسس بطنها برفق وكأنها ترعى ذلك المخلوق الذي يتكون في أحشائها والذي بفضله تحولت حياتها إلى كل هذا الحب والانسجام، وتارة أخرى كانت تضرب بكفها على بطنها بعنف وقسوة وهي تشعر بالكراهية والحقد على ذلك المخلوق في أحشائها؛ فمن أجله هو تحول أهل البيت نحوها بالحب والرعاية، ومن أجله تحول إهمال خالد إلى حب واهتمام وتحولت كراهية أهل زوجها إلى اهتمام مزيف مصطنع.

وأصيبت سهام عقب إحدى ثوراتها العارمة بنزيف حاد نقلت على أثره إلى المستشفى وأجريت لها عملية إجهاض سريعة. وحين أفاقت من التخدير وتحسست بطنها بأناملها شعرت بفراغ هائل يحتويها وقهقهات زوجة أبيها تملأ أذنيها ووجه أم خالد يكبر حتى يملأ سقف الغرفة وجدرانها. وأحست نفسها على شفير حفرة عميقة والديدان الشرسة تقترب من جسدها كي تنهشه وتنهش معه ذنوبها وآلامها... فامتدت يدها إلى الطاولة القريبة منها، وأمسكت بزجاجة دواء فهشمتها بقسوة وحزت بالزجاجة المهشمة رسغ يدها، ثم هوت في غيبوبة والديدان تنهش في جسدها رويدا رويدا.

واجتمع الصديقان، محسن وخالد، حول سرير سهام وهي غائبة عنهما بعيدا في عالمها الخاص، تحت تأثير حقنة مهدئة غرزها محسن في ذراعها قبل دخول خالد إلى الحجرة المجللة بالبياض.

واقترب خالد من سرير سهام وأمسك بكف يدها الباردة بين يديه وأخذ يتمتم بصوت تخنقه العبرات:

- هذه سهام الغالية يا محسن، زينة فتيات الحي ووردته الجميلة، أنسيتها؟ أنسيت وردة حينا الجميلة.

وانحدرت دمعتان على خد خالد... وأردف قائلا:

- أنظر إلى وجهها الباهت كلون الحائط خلف سريرها، تنظر بعينيها إلينا فلا ترى سوى خيالات تعشش في عقلها المضطرب، مسكينة سهام... من كان يظن للحظة واحدة أن وردة جميلة تذوي من وخز شوكها وهي في أوج الشباب.

وربت محسن على كتف خالد ثم احتضنه بين ذراعيه ليخفي دمعة حبسها في قلبه حسرة وألماً...

- دعك من التشاؤم يا صديقي... فالحياة قد ناخت على سهام وقست، فاصبر، وغدا تعود إليك ظبيتك الشاردة وتعود للحي وردته الجميلة.

وهز خالد رأسه وعيناه تتجهان إلى وجه سهام الصامت قائلا:

- أتعود سهام يا محسن..؟ ومن يعيد عهد الطفولة والشباب الذي ولى..؟

(٢)
الاكتئاب

الاكتئاب مرض قديم عرفه الإنسان منذ عصور التدوين الأولى، وهناك الكثير من المجلدات القديمة التي تدل على ذلك والتي تصف وتشرح ما يعرف اليوم باضطرابات المزاج. وهناك أيضا الكثير من القصص التي تطرقت لهذا الموضوع منها على سبيل المثال قصة انتحار أجاكس في إليادة هوميروس. كما أن "أبوقراط" استخدم لفظي الهوس والسوداوية لوصف الاضطرابات العقلية منذ القرن الرابع قبل الميلاد. وقام بتفسير مرض الاكتئاب على أنه ناتج عن زيادة في السوداء، وهي أحد الأخلاط الأربعة في الجسم التي عزى إليها مختلف الأمراض النفسية. وجاء تشخيص "أبوقراط" للمرض من زاوية علمية تلاشت فيما بعد في خضم التفسيرات الخرافيه وغير العلمية التي سادت فيما بعد لقرون طويلة وأرجعت الأمراض النفسية المختلفة إلى تأثيرات قوى خارجية على جسم الإنسان المصاب بهذه الأمراض كالأرواح الشريرة والآلهة الغاضبة، مما أخضع علاج هذه الأمراض للسحر والشعوذة في القرون الوسطى. وجاء الأطباء العرب والمسلمون أمثال ابن سينا والرازي وأعادوا إحياء تفسيرات "أبوقراط"

العلمية وبنوا عليها ما جعلها نبراسا يبدد الظلام الذي كان سائدا في أوروبا في ذلك الوقت.

في عام ١٨٨٢ قام كارل كالبوم باستخدام لفظ دوروية المزاج لوصف الاكتئاب والهوس على أنهما مرحلتان لنفس المرض. وقام إميل كريبلين في عام ١٨٩٩ بوصف الهوس الاكتئابي الذي ميزه عن الفصام بذكر خصائص كل منهما. وما زال هذا الوصف قائما ومأخوذا به حتى وقتنا الحاضر. كما وصف كريبلين نوعا من الاكتئاب الذي يصيب النساء بعد سن انقطاع الطمث وفي مرحلة متأخرة من العمر بالنسبة للرجال وهو ما يعرف اليوم بالسوداوية الأوبية، وفرق بين أعراضها وأعراض اضطرابات المزاج.

ومن الملاحظ أن لفظ الاكتئاب أصبح متداولا عند العامة بمجرد إحساسهم بتدهور في الروح المعنوية أو الحزن، بينما ليس من الضرورة أن يكون هذا الشعور في حد ذاته دليلا قطعيا على إصابة الإنسان بمرض الاكتئاب. لذلك أصبح من المهم معرفة الأعراض الحقيقية لاضطرابات المزاج، ليس من قبل الطبيب فحسب، وإنما أيضا من قبل المريض والمجتمع ككل. ويعتبر الاكتئاب من أكثر الاضطرابات النفسية شيوعا بين الناس إذ يصل معدل الإصابة به إلى حوالي ٦٪ من السكان، على الرغم من أن ٥٠٪ فقط من هذه الفئة هي التي تتلقى العلاج. ويتميز الاكتئاب أساسا بكونه مرضا دوريا يتكرر في فترات تبرز فيها الأعراض. أما فيما عداها فإن المريض يكون متمتعا بصحة نفسية جيدة. ويعاود الاكتئاب حوالي ٥٠-٨٥٪ من المرضى بعد ٦ شهور تقريبا. ويرتفع معدل الإصابة إذا كان المريض في الأساس يتميز بتعكر المزاج أو كان من مدمني الكحول والمخدرات، أو أنه كان يعاني من أعراض القلق أو

الاكتئاب في فترات سابقة من حياته. ويبقى حوالي ٥٠٪ من المرضى أصحاء عقليا بينما يعاني ٣٠٪ من المرضى من عجز متوسط الدرجة و٢٠٪ من عجز ملحوظ، ويكون الرجال أكثر احتمالا للإصابة بعجز مزمن.

عوامل الاستعداد للإصابة بالمرض:

١ - العوامل الوراثية:

أثبتت الكثير من الدراسات مدى العلاقة بين المورثات ونسبة الإصابة بالاكتئاب، ويمكن تلخيص نتائج هذه الدراسات كما يلي:

أ- يصل عدد المصابين بالهوس الاكتئابي والمنتمين لعائلات يكون فيها أحد الأبوين على الأقل مصابا بالاكتئاب أو أي اضطراب آخر للمزاج ٥٠٪.

ب- تصل نسبة احتمال الإصابة باضطراب المزاج إلى ٢٧٪ لدى الافراد المنتمين لعائلة يكون فيها أحد الأبوين مصابا بالهوس.

ج - ترتفع نسبة الإصابة باضطراب المزاج لتصل إلى ٥٠-٧٥٪ لدى الأفراد المنتمين لعائلة يكون كلا الأبوين فيها مصابين بالهوس.

كما أن معدلات التطابق لمرضى الهوس الاكتئابي بين التوائم أحادية البويضة تصل إلى ٦٧٪ مقارنة بالتوائم ثنائية البويضة التي تصل نسبة التطابق بينها إلى ٢٠٪ فقط.

وجاءت دراسات التبني لتؤكد أهمية العوامل الوراثية في الإصابة بالمرض. وتفيد هذه الدراسات أن:

أ- معدل إصابة الآباء الذين قدموا أطفالهم للتبني واتضح أن هؤلاء الأطفال مصابون بأحد اضطرابات المزاج تتساوى ومعدل إصابة آباء الأطفال المرضى الذين لم يقدموا أبناءهم للتبني.

ب - معدل إصابة الوالدين المتبنين لأطفال مصابين بأحد اضطرابات المزاج تعادل النسبة العامة في سكان المجتمع.

٢ - العوامل العرقية والسلالية:

لا توجد علاقة بين معدل الإصابة باضطرابات المزاج والسلالة التي ينتمي إليها المصاب. إلا أن الاختلاف يكمن عادة في التشخيص الخاطئ حيث يرجع بعض الأطباء سبب الاضطرابات لدى الأفراد الذين يختلفون عنهم في السلالة إلى الفصام بدلا من اضطرابات المزاج. ويمكن ملاحظة ذلك في المجتمعات التي تفرق بين السود والبيض.

٣ - عوامل السن والجنس :

يبدأ احتمال الإصابة بالاكتئاب منذ الطفولة وحتى الشيخوخة، الا أن أعراض المرض عادة ما تظهر لدى ٥٠٪ من المرضى بين سن الـ٢٠ و٥٠ عاما، أي أن متوسط عمر الإصابة بالمرض هو الأربعون. وعادة ما تبدأ الإصابة بمرض الهوس في سن أصغر تمتد من الطفولة وحتى سن الخمسين ويكون متوسط سن الإصابة ٣٠ عاما.

فمثلا بدأت أعراض المرض بالظهور على سهام، شخصية "ظبية الحي الجميلة"، قبل وصولها لسن العشرين، وذلك بعد فترة من وفاة أبيها.

أما بالنسبة للجنس فقد أثبتت معظم الدراسات أن معدل إصابة النساء بالاكتئاب يصل إلى الضعفين أو الثلاثة أضعاف مقارنة بمعدلات إصابة الرجال. وبالرغم من أن أسباب الاختلاف في النسبة مازالت غير معروفة إلا أن البعض يرجعها إلى طبيعة المرأة حيث أنها لا تتحرج في طلب المساعدة أو في وصف شعورها، أو أنهم يرجعونها إلى الضغوط الكثيرة التي تتعرض لها المرأة والتي تؤدي إلى ضعف مستوى تأقلمها مع الظروف المحيطة بها. وربما قد تكون بسبب الحمل والولادة وتأثير الهرمونات الجنسية الأنثوية. وهذا بالفعل ما أدى الى زيادة حدة أعراض الاكتئاب عند سهام.

أما بالنسبة للهوس فإن معدل الإصابة به متساو تقريبا في الجنسين.

٤ - العوامل الاجتماعية :

أثبتت الدراسات الأولى أن معدلات الإصابة بالاكتئاب تزداد بين أفراد الطبقات الفقيرة وساكني المناطق الريفية مقارنة بسكان المدن ولدى النساء العاملات إذا ما قورن بنساء الطبقات الوسطى والعليا. كما بينت الدراسات أن معدلات الإصابة بالاكتئاب تزداد بين الأفراد غير المتزوجين والذين يفتقرون إلى العلاقات الحميمة وكذلك بين المطلقين أو المنفصلين عن أزواجهم.

بالإضافة إلى ما سبق، فإن هناك عوامل أخرى لها علاقة بالإصابة بالاكتئاب يمكن تلخيصها فيما يلي:

أحداث الحياة :

يعتقد بعض الأطباء أن أحداث الحياة تلعب دورا أساسيا في معدلات الإصابة بالاكتئاب. ومن أمثلة هذه الأحداث فقد أحد الوالدين قبل سن الحادية عشرة أو فقد أحد الزوجين لشريك حياته.

فمثلا نلاحظ أن أحداث الحياة لعبت الدور الأساسي في ظهور أعراض المرض لدى سهام، ابتداءً من وفاة والدتها وهي في سن الخامسة عشرة، وما كان لذلك من أثر سلبي على نفسيتها، ثم قيامها هي بدور الأم وربة البيت، مما أدى إلى إهمالها لدراستها ورسوبها في المدرسة. ولم تكن سهام تلقى أي مساعدة من أبيها، بل كان والدها يشكل عبئاً كبيراً عليها. فكلما ازدادت سهام في اهتمامها وعطائها له ولاخوتها، كان هو يزداد في قسوته ومعاملته الفضة، إضافة إلى خروجه الدائم من المنزل ثم زواجه من امرأة أخرى وانتقاله إلى منزل آخر للعيش معها. واعتقدت سهام أن زواجها من خالد سيكفل لها حياةً سعيدةً تتسم بالطمأنينة والاستقرار، إلا أن سكنها مع والدة زوجها وشقيقته تحت سقف واحد، وما كانتا تظهران انه لها من كره وتعنت، زاد من حدة الضغوط النفسية عليها. ثم تُوجت هذه المآسي كلها بفقدها للجنين، وما صاحبه من أثرٍ نفسي عميق مما ساهم في سوء حالتها.

عوامل الشخصية قبل المرض:

قد يكون أي فرد معرضاً للإصابة بالاكتئاب تحت ظروف معينة.

إلا أن لاختلاف شخصية الفرد ومدى تكيفه وتأقلمه مع أحداث حياته دوراً مهماً في معدل الإصابة بالمرض. وبناء على ذلك يمكن التنبؤ بمن هم معرضون للإصابة به بنسبة أكبر من غيرهم. وعلى سبيل المثال نلاحظ أن الفرد الذي يتميز بشخصية وسواسية قهرية وهستيرية أكثر عرضة للاكتئاب من المنعزل اجتماعيا أو صاحب الشخصية العظامية أو غيرهم من مستخدمي الآليات الدفاعية النفسية الأخرى.

وعلى الرغم من أهمية جميع العوامل السابقة في زيادة احتمال الإصابة بالاكتئاب إلا أن للعوامل البيولوجية تأثيرا مهما أيضا. فلقد وجد أن اضطرابات المزاج يصحبها خلل وظيفي في اثنين من المرسلات العصبية في المخ وهما مركبا السيروتونين والنورأدرينالين (أو النورإيبنفرين) حيث ترتفع نسبة السيروتونين في مرضى الاكتئاب. وقد توفرت هذه المعلومات بناء على نتائج دراسات عديدة كان من أهمها ما أجري من فحص على ضحايا الانتحار بعد موتهم تبين منها ارتفاع نسبة السيروتونين في المخ .وعندما أجريت التجارب على الحيوانات بإعطائهم جرعات من مضادات الاكتئاب وجد أنها تسببت في تقليل حساسية المستقبلات العصبية في الخلايا العصبية لهذين المركبين. وبناء على ذلك يصف الاطباء النفسيون مضادات الاكتئاب للمرضى المصابين بالاكتئاب لكي تقلل من تركيز المستقبلات العصبية في خلايا المخ وتؤدي إلى تحسن أعراض المرض.

أعراض المرض ومميزاته:

يعتبر تعكر المزاج واكتئابه وفقدان الرغبة في أي شيء في

حياة الفرد من أهم الأعراض التي يعاني منها مريض الاكتئاب الذي عادة ما يصف تعكر مزاجه بأنه أكثر حدة في الصباح ويقل تدريجيا في المساء.

ويشعر كثير من المرضى بتدهور في العزيمة والروح المعنوية فيفقدون الثقة بالنفس والأمل بالحياة. ويستطيع مريض الاكتئاب أن يفرّق بين هذا الشعور الاكتئابي وبين مجرد الإحساس بالحزن، وعادة ما يصفه بشعور انفعالي مؤلم. كما يصعب على معظم المرضى البكاء، وتتلاشى هذه الحالة تدريجيا في مراحل الشفاء، إلا أن بعض المرضى المصابين بالاكتئاب لا يشعرون بتاتا بذلك ولا يشكون من أعراضه على الرغم من انسحابهم من محيط العائلة والأصدقاء والنشاطات التي كانت تمثل لهم اهمية خاصة في حياتهم.

ويشعر معظم المرضى أو ما يعادل ٩٧٪ منهم بانهيار طاقتهم ويجدون صعوبة في إنهاء مهماتهم سواء في العمل أو المدرسة بالإضافة إلى تدني الدافع لديهم لتولي مهمات جديدة. ويعاني كثير من المرضى من مشكلات في النوم وخاصة في فترة الاستيقاظ في الصباح، كما يتميز نومهم بأنه متقطع. وتزداد شهية بعض المرضى ويزداد وزنهم على العكس من البعض الآخر الذين تقل شهيتهم وينقص وزنهم. كما يشتكي حوالي ٨٤٪ من المرضى من صعوبة في التركيز و٦٧٪ من صعوبة في التفكير المنطقي.

ويظهر مؤشر القلق على ٩٠٪ من المرضى مما يزيد حدة الاكتئاب لديهم الذي يؤدي إليه كذلك إدمان الكحول وبعض الأمراض الجسمية الأخرى كالإمساك والصداع. وهذه الأعراض التي تطرأ

على المرضى قد تؤثر على أمراض عضوية كانوا يشتكون منها في الأصل كالسكري وارتفاع ضغط الدم وأمراض القلب والرئة.

ويصاب كثير من مرضى الاكتئاب بنوع آخر من اضطرابات المزاج يعرف بمرض الهوس الاكتئابي. ويتميز هذا المرض بحدوث نوبات من الاكتئاب تعقبها نوبات من الهوس. وتتراوح الفترات بين هذه النوبات من بضعة أيام إلى عدة شهور. وكما أنه من الممكن أن يعاني بعض المرضى من نوبات متكررة من أعراض الاكتئاب فقط، قد يصاب بعض آخر بنوبات هوس دون ظهور أي من أعراض الاكتئاب عليهم. ومن أهم الأعراض التي تميز الهوس التالي:

- الشعور بالفرح المفرط أو العصبية الزائدة وعدم القدرة على الكلام.

- الثقة الزائدة بالنفس وتوهم العظمة.

- إزدياد النشاط والحركة.

- كثرة الكلام وسرعته وتطايره، وانعدام القدرة على التركيز.

- زيادة النشاط والشعور بعدم الحاجة للنوم والراحة.

- إنخفاض الشهية.

- قلة النوم.

- البذخ في الصرف وشراء حاجيات لا لزوم لها.

ويلاحظ على المرضى المصابين بالاكتئاب تغير في سلوكهم وتصرفاتهم يمكن تلخيصه فيما يلي:

١ - يتميز المصابون بالاكتئاب بالتخلف النفسي الحركي وهو الأكثر شيوعا، إلا أن العكس قد يحدث في بعض الحالات وخاصة في المرضى الكبار في السن. كما يتميز المرضى بالوضع الثابت والنظرة التجنبية وانعدام الحركات الإرادية وتدهور الروح المعنوية. وتبدو أعراض المرضى المصابين بتخلف نفسي حركي مثل أعراض الفصام التخشبي.
٢ - ينكر حوالي نصف عدد المصابين شعورهم بالاكتئاب. وعادة لا يستشير هؤلاء المرضى الأخصائي بمحض إرادتهم فيلجأ بعض أفراد العائلة أو زملاء العمل إلى اصطحابهم إلى الطبيب المختص نتيجة لما يلاحظونه عليهم من انطواء اجتماعي أو تدهور عام في نشاطاتهم.

٣ - يعاني بعض المرضى من التهيؤات والهلوسات التي عادة ما تكون نادرة الظهور. ويعرف المرض في هذه الحالة بالاكتئاب الذهاني.

كانت سهام ترى خيالات لوجه أم زوجها ووجه زوجة أبيها وهما يضحكان. وكانت أيضا تشعر وكأنها تسقط في أعماق حفرة مرعبة تحيط فيها الديدان بجسدها.

وإذا ما صاحب هذه التهيؤات والهلوسات شعور المريض بالذنب وإحساسه بالخطيئة وانعدام قيمته وفشله وتوهمه بأن لديه أمراضا جسمية كالسرطان أو تعفن المخ عرفت على أنها مطابقة

لمزاجه على عكس تلك التي لا تطابق مزاج المريض وتتميز بإحساسه بقيمته الهامة كأن يعتقد أنه أحد الأنبياء أو أن لديه طاقة ومعرفة يعلم من حوله بأنهما مبالغ فيهما.

٤ - ينظر المريض لنفسه وللعالم من حوله نظرة سلبية، وعادة ما تراوده أفكار الذنب والضياع والموت والانتحار. كما أنه من الملاحظ على المرضى قلة الحديث إلا بصوت خافت وتكون أجوبتهم مقتضبة ومقتصرة على كلمة أو اثنتين وذلك بعد تردد و فترة من طرح السؤال. كما يعاني حوالي ١٠٪ من المرضى من اضطراب في التفكير.

٥ - تراود فكرة الانتحار ثلثي المرضى المصابين بالاكتئاب إلا أن نسبة من يتوفى منتحرا منهم تصل إلى ١٠-١٥٪. وقد يفكر بعض المرضى بقتل بعض الأفراد الذين تشير لهم أوهامهم بأنهم ضدهم أو يريدون إيذاءهم، إلا أن المريض في مثل هذه الحالات عادة ما يكون فاقدا لطاقته فلا يقوم بأي فعل يتسم بالعنف أو الأذى.

ويؤدي علاج الاكتئاب إلى تحسن أعراض المريض، فترجع له طاقته تدريجيا. ولهذا وجب ألا يعطى المريض كمية كبيرة من الدواء وخاصة مضادات الاكتئاب عند خروجه من المستشفى كي لا يسيء استخدامها كأن يستعملها كوسيلة للانتحار.

٦ -يشتكي مرضى الاكتئاب من صعوبة في التركيز وتذكر الأشياء، كما يعاني حوالي ٥٠-٧٥٪ منهم من ضعف الذاكرة وهو ما يطلق عليه خرف الاكتئاب الكاذب.

٧ -يبالغ المرضى عادة في وصف أعراضهم وحالتهم ومرضهم ومشكلاتهم لدرجة أنه يصعب على الطبيب المختص إقناعهم بإمكانية تحسن حالتهم. كما يلاحظ أن المريض يقلل من شأن الأمور الحسنة ويبالغ في وصف غيرها من الأمور السيئة.

سير المرض:

يصاب حوالي ٥٠٪ من المرضى بالاكتئاب قبل سن الأربعين. وتمتد فترة الاكتئاب، بدون علاج، حوالي ٦-١٣ شهرا. أما إذا تعاطى المريض العلاج اللازم، فان الأعراض تتحسن في فترة قصيرة قد لا تتعدى أسبوعين، على الرغم من تأخر استجابة البعض لفترة قد تمتد إلى ثلاثة أشهر. وينصح الطبيب المريض بتعاطي العلاج لفترة تتراوح بين ستة إلى تسعة اشهر، لأن نوبة الاكتئاب عادة ما تستغرق تلك الفترة. ولهذا فإن التوقف عن تعاطي العلاج قبل فترة ثلاثة اشهر قد يؤدي إلى معاودة الأعراض. ومن الجدير بالذكر أن تَكَرُر معاودة مرض الاكتئاب وطول فترته يزدادان مع تقدم العمر، إذ قد يصاب المريض المتقدم في السن ٥-٦ مرات في فترة لا تتجاوز العشرين عاما. وقد يعاني ٥-١٠٪ من المصابين بالاكتئاب الحاد من نوبات هوس بعد ٦-١٠ سنوات من بدء إصابتهم، وعادة ما تعاني هذه الفئة من زيادة في معدل النوم والتخلف النفسي الحركي وأعراض نفسية أخرى.

العلاج:

تعالج معظم حالات الاكتئاب في العيادة الخارجية، إذ لا يحتاج المريض للدخول إلى المستشفى إلا في حالات معينة سيأتي ذكرها من

فيما بعد. إلا أنه من المهم في جميع الحالات أن يتم العلاج تحت إشراف الطبيب حتى يتمكن من متابعة سير المرض والعلاج وما قد يطرأ من تطورات في المرض أو آثار جانبية أو مضاعفات ناتجة عن العلاج.

وقد يحتاج بعض مرضى الاكتئاب للدخول إلى المستشفى لتعذر إعطاء أو إتمام العلاج في العيادة الخارجية. وقد لا يقبل بعض هؤلاء المرضى دخول المستشفى بمحض إرادتهم، ولهذا فإن على الأهل أو الأصدقاء أو زملاء العمل إقناعهم أو ربما حتى إجبارهم على ذلك خاصة وأنه يصعب على هؤلاء المرضى اتخاذ القرارات بسبب نظرتهم السلبية للعالم المحيط بهم وبطء التفكير لديهم وفقدان الأمل. ويتوقف دخول المريض إلى المستشفى على قرار الطبيب المعالج الذي ينصح بذلك إذا كانت حالة المريض تستدعي ذلك.

وتوجد بعض المؤشرات الهامة التي تحدد حاجة المريض لدخوله إلى المستشفى والتي يمكن تلخيصها كما يلي:

- الحاجة إلى مراقبة المريض عن كثب للتعرف على أعراضه وسلوكه وذلك للمساعدة على التوصل للتشخيص الصحيح.

- إزدياد حدة أعراض المريض أو تطورها بصورة سريعة وخاصة إذا لم تكن استجابة المريض للعلاج بالدرجة المرضية.

- عدم قدرة المريض على الاعتناء بنفسه أو توفير المأوى والملبس والطعام والشراب لنفسه.

- الانخفاض الحاد في وزن المريض وإصابته بالأرق الشديد.

- إحتمال إقدام المريض على الانتحار أو ارتكابه لجريمة قتل.

وتتضمن وسائل العلاج المتبعة ما يلي:

١ -العلاج بالأدوية:

تعرف الأدوية التي تعطى لعلاج الاكتئاب بمضادات الاكتئاب. ومن أمثلة هذه الأدوية ما يلي:

, تريبتيزول.

, توفرانيل.

, لوديوميل.

, بروزاك .

ومن المعروف عن هذه الأدوية أن بداية ظهور مفعولها قد لا يبدأ قبل أسبوع من بداية تعاطي العلاج، وقد يتأخر إلى أكثر من أسبوعين. ولهذا وجب على الطبيب شرح ذلك للمريض وتوعيته بالآثار الجانبية لهذه الأدوية حتى لا يتوقف عن تعاطي دوائه عند ظهورها لجهله بها. كما يجب على الطبيب أن يشرح لمريضه أن تحسن الأعراض مع العلاج عادة ما يكون تدريجيا ويبدأ بتحسن النوم والشهية ومن ثم استرجاع النشاط والطاقة وزوال الشعور بالاكتئاب.

الآثار الجانبية للأدوية:

وتشمل الآثار الجانبية لهذه الأدوية أعراضا قد يشعر المريض ببعضها أو كلها. وعادة ما تزول معظم هذه الأعراض أو كلها بعد أيام قليلة من بدء العلاج. ومن أهم هذه الأعراض ما يلي:

- جفاف الفم والحلق .
- إزدياد افراز العرق.
- الإمساك وصعوبة التبول.
- زغللة في النظر. وقد تؤثر بعض هذه الأدوية على الضغط الداخلي للعين مما قد يؤدي إلى إرتفاعه وزيادة حدة مرض مياه العين السوداء.
- إنخفاض ضغط الدم عند تغيير وضع الجسم كوقوف الشخص فجأة بعدما كان جالسا.
- إزدياد في ضربات القلب.
- زيادة الوزن .

٢ -العلاج بالصدمات الكهربية:

يستخدم هذا النوع من العلاج في حالات محدودة وهي:

أ- عدم استجابة المريض للأدوية المضادة للاكتئاب.

ب - عدم استطاعة المريض تحمل الأدوية أو آثارها الجانبية.

ج - سوء الحالة المرضية وزيادة حدتها بحيث يخشى على المريض من الجفاف أو الانهيار أو هبوط ضغط الدم الحاد وتوقف القلب مما يستوجب الحاجة إلى علاج سريع يؤدي إلى تحسن الأعراض والحالة المرضية .

د- عدم التمكن من إعطاء أدوية مضادة للاكتئاب لئلا يؤدي ذلك إلى زيادة حدة أمراض عضوية أخرى متزامنة مع الاكتئاب وخاصة لدى كبار السن.

ويجب هنا إزالة بعض الأفكار الخاطئة عن هذا النوع من العلاج، حيث يعتقد البعض أنه يسبب تلفا في المخ، وهذا بالطبع ليس صحيحا، بل إن هذا العلاج قد يكون أسلم في كثير من الأحيان من العلاج بمضادات الاكتئاب. ويؤدي العلاج بالصدمات الكهربائية إلى فقدان مؤقت للذاكرة، وخاصة لفترة العلاج، الا أن ذاكرة المريض تعود إلى طبيعتها الأصلية بعد انتهاء العلاج.

٣ -العلاج النفسي:

للعلاج النفسي دور كبير جدا في حالة الاكتئاب إلى جانب العلاج الدوائي حيث يحاول الطبيب المعالج أن يدرس سلوكيات المريض ويعرف مدى تأثيرها على نمط حياته. كما يدرس الطبيب أيضا أفكار المريض ووجهات نظره، ويحاول ربطها بما يعانيه حتى يتمكن من تطوير تفكير المريض وجعله يحكم على الأمور بإيجابية ليتأقلم مع وضعه وظروفه الحياتية المختلفة.

ولا يتوقف دور العلاج النفسي في الحد من أعراض الاكتئاب بل إنه يفيد في إرجاع المريض لحالته الطبيعية وتنمية ثقته بنفسه وتطوير علاقاته مع الناس وتعويده على تحمل كم كبير من الانفعالات. وقد يعاني المريض أثناء العلاج من القلق والضيق، ويعتبر ذلك من الأعراض الجانبية التي قد تستمر لبعض الوقت بعد إتمام العلاج.

التأهيل ودور العائلة:

يؤثر الاكتئاب بصورة كبيرة على حياة المريض وعلاقاته الزوجية والعائلية خاصة إذا كان الاكتئاب نتاجا للنمط العائلي الذي يعيشه المريض وله علاقة مباشرة به. وتشير كثير من الدراسات إلى أن مرضى الاكتئاب يسجلون نسبا عالية في معدلات الطلاق. كما تدل الدراسات إلى تأكيد حوالي ٥٠٪ من شركاء حياة مرضى الاكتئاب أنهم لم يكونوا ليتزوجوهم أو ينجبوا أطفالا منهم لو علموا أنهم سيصابون باضطرابات مزاجية. ولهذا فإن للعائلة دورا كبيرا ومهما في إنجاح العلاج. وعلى أفراد العائلة فَهْم الحالة المرضية لقريبهم وتفهم أعراضه وحالته النفسية وبالتالي مساعدته على مواصلة العلاج وشفائه وعودته إلى وضعه الصحي الطبيعي .وعندها سيفهم المريض طبيعة علاقته العائلية والحياتية الأخرى، وبالتالي سيؤدي ذلك إلى تفهمه لحالتهم النفسية والتأقلم معها.

الفصل الثالث

(١)

في المقعد الخلفي

القدر ذلك المجهول الذي يمسك بحبال المصير، فيشدها تارة ويرخيها تارة أخرى، ويبقى المرء معلقا بحباله التي تتحكم بمصيره.

كان القدر بالمرصاد لسامر، الشاب اليافع الذي كان مصدر فخر لوالده وقرة عين أمه. ورغم كونه وحيد والديه فقد كان شابا جادا، مجتهدا في دروسه وفي علاقاته مع أهله وأقرانه. فجأة أصيبت الأم بمرض عضال لم يمهلها طويلا وكان سامر في الخامسة عشرة من عمره. وحلت المفاجأة كطامة كبرى على نفس وعقل الشاب الصغير بكثير من الآلام والحزن، وتحامل رغم ذلك حتى مرت أيام الحزن الأولى والوحدة والفراغ يحاول جاهدا أن يقف مع أبيه في ترمله وخسارته، وقلبه يئن ويبكي، وهو يحاول أن يتظاهر بالمرح ليخفف من آلام أبيه. وكان لذلك ضغط نفسي على قلب الفتى وجوارحه حتى انهار ذات يوم في بكاء وعويل أعقبهما مرض جعله

يرتجف ويتصبب عرقا ويرى كوابيس بالليل وأحلاما مزعجة في صحوه ليل نهار. يرى أمه مجللة بالبياض تمد يديها إليه تناديه، تحثه إليها، وهو قابع في سريره كالمقعد يحاول الوقوف فيسقط من المرض والإعياء. كثّف الأطباء من علاجه حتى زالت أعراض المرض عنه وعاد تدريجيا إلى حالته السابقة، أو هكذا تراءى لأطبائه، اذ كانت تعاود سامر كوابيسه المزعجة فيسمع أمه تناديه في وسط الليل، ثم يرى وجهها كقمر أبيض أو جسد دون رأس مجللا بالبياض يمتد في الفراغ للإمساك به فيصاب برجفة خوف ويتصبب العرق حتى يبلل فراشه. ومن حسن حظ سامر أن تلك الكوابيس كانت متباعدة بحيث لم تؤثر على دراسته وتقدمه.

ومرت سنة أو يزيد على موت والدته وسامر منغمس في الدراسة والعمل في البيت حتى يؤمن للبيت مستلزماته. وفوجئ الشاب ذات ليلة برغبة والده بالزواج من امرأة تحل مكان والدته المتوفاة. ولم يرق لسامر أن تحل أية امرأة مكان أمه ولكن ما بيده حيلة. فقرار والده لا رجعة فيه. ودخلت المرأة الأخرى البيت وقلب سامر يتفطر حزنا وعيناه تذرفان الدمع سرا، بالرغم من حرص زوجة أبيه على معاملته معاملة جيدة فيها الكثير من التحفظ والمداراة. وأصبح سامر يفضل الدراسة عند أصدقائه ويمضي معظم ساعات النهار في المدرسة أو للمذاكرة عند أصدقائه، لا يعود إلى البيت سوى للأكل أو النوم. وتباعدت مع الأيام علاقة الأب بابنه رغم حرص الأب على الموازنة بين علاقته مع ولده وعلاقته مع زوجته، إلا أن سامر كان يشعر بكراهية لتلك المرأة التي احتلت قلب والده وتربّعت على عرش بيته، وأصبحت كوابيس الليل تتكرر فيشعر بقلق وخوف يزولان مع إشراقة الصباح. حتى كان عصر ذات يوم وسامر مع زميله عبدالله يدرسان على شرفة بيت الثاني، يتوقفان من حين لآخر لشرب كوب من الشاي، أو لمعاكسة بعض الفتيات اللواتي يسرن في الشارع برمي كتل الورق عليهن

ويتضاحكان كلما فوجئت إحداهن بالورق المتساقط على رأسها أو رمقتهما أخرى بدلال أو غضب. ومر رتل من فتيات يغطين رؤوسهن بأحجبة بيضاء أو سوداء وسقطت ورقة على رأس احداهن فرفعت بصرها إليهما وهي ترفع يديها بغضب وتتمتم بكلمات غير مسموعة لهما. وفجأة اكفهر وجه سامر وأخذ ينظر إلى الفتاة وهي ترفع يديها مستنكرة، وتراءى له وجه أمه في تلك الفتاة وذراعاها ممدودتان نحوه ترجوه أن ينزل إليها كي تضمه إلى صدرها. وتراجع سامر إلى الوراء وسقط على كرسيه وهو في حالة من الهلع والخوف وهو يتمتم: " تريدني قربها لتحضنني في ظلمة القبر".

وأخذ جسده يهتز بقوة حتى سقط على أرض الشرفة... وكأن مسا قد أصاب الجسد المسكون وتصبب العرق من وجهه وجسده بغزارة، وراح صدره يعلو وينخفض يصارع ليلتقط بعض الهواء وأنفاسه تتلاشى بحشرجة الموت وشفتاه غارقتان في زرقة قاتمة.

وهرع الأب إلى قسم الطوارئ بالمستشفى، وجرى عبدالله نحوه وهو يرتجف خوفا قائلا:

- لا أدري ما حصل لسامر. كان في أحسن حال، ندرس ونتضاحك، وفجأة سقط بين يدي وهو يرتجف كريشة في مهب الريح ويتمتم بكلمات مبهمة عن الموت، كأنه يودعني الوداع الأخير.

ونهره الأب قائلا:

-صه، يا هذا، لا وقت لثرثرتك الآن، دعنا نسمع ما سيقوله الطبيب...

واقترب الطبيب من والد سامر قائلا:

- أنت والده؟

- الأب: نعم، طمئنني يا دكتور ماذا حصل لولدي؟ لقد أخبرتني على الهاتف أنه في وحدة أمراض القلب، وولدي شاب في السابعة عشرة من عمره..

فقاطعه الطبيب قائلا:

- هناك أطفال بأمراض القلب، ونحن لم نجزم بأن قلب سامر غير سليم، فالتخطيط والفحص الدقيق سيصلانني بعد دقائق. وقد أدخلنا سامر إلى وحدة القلب لأن جميع الأعراض، من ضيق تنفس ورجفة ودقات قلب متسارعة وجفاف حلق وخلافه كلها تشير إلى خلل ما.

ودخل الطبيب بصحبة الأب إلى عيادته ونظر إلى الأوراق الخاصة بسامر على مكتبه فقرأها بتمعن وروية ثم نظر إلى الرجل الجالس أمامه في ترقب ظاهر قائلا له:

- إطمئن يا أبا سامر، إن قلب ولدك سليم، ولكن يمكنه البقاء في المستشفى بضعة أيام ليرتاح وتجرى له بعض التحاليل والفحوص الأخرى.

- الأب: لقد مر سامر بضغوط نفسية وإرهاق في الدراسة، وعودته إلى دفء وحنان البيت ستوفر له ما يحتاجه من عناية ورعاية.

وسرح الوالد بفكره مستعرضا حالة ولده سامر وانعزاله وانطواءه وانشغاله هو عنه بعمله وأصدقائه وبزوجته والطفلة الجديدة سارة التي ملأت البيت بهجة أنسته وجود سامر. تمر الأيام والأسابيع فلا يراه إلا داخلا أو خارجا من غرفته. وشعر الوالد بحسرة وهو يتذكر تلك الأيام، رغم قسوتها، وسامر يحاول أن يخفف عنه مأساة فقدان الزوجة والأم ووقوفه وقفة رجل وهو الشاب اليافع لكي يملأ بحيويته وشبابه بعض الضياع والحيرة في فترة ترمله الأولى.

وانصرف الأب للاهتمام بسامر حتى يعوضه بعض ما فاته من اهتمام وحنان، وأحس سامر بحنان وحب افتقدهما منذ توفيت والدته، وكأن حاله يقول رب ضارة نافعة. وتحسنت حالة سامر الصحية والنفسية بتعاطيه الدواء الذي وصفه له الطبيب وباهتمام والده، وعاد إلى دراسته بهمة ونشاط واجتاز امتحانات الثانوية العامة بنجاح وثقة.

واحتفلت العائلة بنجاح سامر فتجمع بعض الأهل والأقارب حول طاولة ملأى بما لذ وطاب والكل في مرح وحبور. وفجأة نهض سامر عن طاولة الطعام وسار نحو الصالة ثم سقط على الأرض، وأخذ يشهق شهيق من يلتقط أنفاس الحياة بصعوبة وجسده يهتز اهتزازا شديدا، والعرق يتصبب من وجهه وجسده. فهرع القوم بهلع إليه... هذا يحاول أن يرشه بالماء والآخر يفتح له أزرار قميصه كي يساعده على التنفس، والآخر يضغط على صدره.. وجاءت سيارة الإسعاف لتنتشل سامر من الهرج والمرج الذي ساد الحفل الكئيب.

ودخل الأب، والكآبة تعلو وجهه، إلى الطبيب الذي أكد له سلامة قلب ولده سامر بعد اطلاعه على تخطيط القلب الحديث والسابق،

ونصحه بأن يحول سامر إلى طبيب نفسي، ورفض الأب فكرة عرضه ولده على طبيب نفسي مؤكدا أن عقل ولده سليم، وإنما ما حصل له هو نتيجة الإرهاق بعد السهر الطويل استعدادا للامتحانات النهائية.

وصمم الأب أن يأخذ ولده إلى بلد قريب بحجة زيارة خال له يعمل هناك وليعرضه على أخصائي أمراض القلب في المستشفى التخصصي في ذاك البلد.

وفرح سامر بلقاء خاله شاكر الذي لم يره لأشهر عدة، وشعر بحنان جارف نحوه كحنانه لصدر أمه المتوفاة. وأصبح يرافقه في غدوه ورواحه إلى مكتبه أو إلى مواقع العمل في شركة البناء التي يملكها. وذات يوم وسامر بصحبة خاله في المكتب أخذ شاكر يكلمه عن مصاعب العمل والمشاكل التي يصادفها عند غياب المهندس أو بعض العمال، فهذا يأخذ ابنه للطبيب وذاك يتغيب لوفاة والده أو زوجته.

فعلّق سامر ساخرا وهاجس الموت يلاحقه:

- على إبليس أن يأخذ الإذن منك قبل أن يقبض على خناق أحد موظفيك.

وضحك الاثنان من تعليق سامر.

وقال شاكر بتأنيب مبطن:

- لا تسخر من الموت، فالموت سلطان لا سلطة لأحد عليه.

حدد شاكر موعدا لسامر عند الدكتور عصام كبير أطباء القلب في المستشفى الخاص لما له من دالة ومعارف مستغربا قلق نسيبه على صحة ولده الذي يبدو في عنفوان شبابه. وفي الموعد المحدد جلس سامر قرب خاله في المقعد الخلفي بالسيارة وراحا يتحدثان في أمور عابرة قتلا للوقت. وفجأة لاحظ شاكر جحوظ عيني سامر واحتقان وجهه وهو ساكن لا يتحدث، ثم أصابته رجفة كاد أن يقع على الأرض من شدتها، وأخذ العرق يتصبب من وجهه، ثم هوى على المقعد الخلفي وهو يمسك صدره بيده وكأن قلبه سوف يسقط منه، وأنفاسه تتلاحق وتختفي تتخللها شهقات قصيرة بحثا عن الهواء. ولجمت المفاجأة لسان شاكر وأدار السائق رأسه ليرى ما يحدث في المقعد الخلفي، فصرخ شاكر: أنظر أمامك كي لا تقع في حادثة أخطر، وسق بسرعة إلى قسم الطوارئ بالمستشفى.

وتدخل القدر بوجود الدكتور عصام عندئذ في ذلك القسم لمعاينة مريض آخر.

وأدخل سامر إلى قسم الطب النفسي ليعالج من حالة القلق الحادة التي تفاقمت لديه نظرا لعدم عرضه على طبيب نفسي مختص في المراحل الأولى من المرض.

(٢)

القلـــق

يمكن تعريف القلق بأنه إشارة منبهة تحذر من وجود خطر يهدد أمان وسلامة الإنسان أو صحته أو حياته، وتمكنه من وضع المقاييس والاحتياطات اللازمة للتصدي لهذا التهديد. ويُعتبر القلق شعورا شائعا ولكنه غير سار لاتسامه بعدم الوضوح في بعض الأحيان وعدم معرفة حقيقة أو سبب الشعور به، ولما يسببه من أعراض فسيولوجية كازدياد قوة وسرعة ضربات القلب وضيق التنفس والارتعاش وتصبب العرق والصداع والشعور بفراغ في المعدة، وفي بعض الأحيان كثرة التبول والإسهال. كما قد يشعر المريض بالتململ وعدم الراحة والرغبة في التنقل والتجوال من مكان إلى آخر. وتتشابه كثير من الأعراض التي تصاحب القلق وتلك التي تظهر على الإنسان عندما يشعر بالخوف الذي تصاحبه أعراض كالشعور بالذهول والقشعريرة والرعشة وجفاف الحلق وسرعة خفقان القلب وسرعة التنفس وشحوب اللون. وقد يكون الإنسان الخائف عاجزا عن الحركة أو الكلام أو التنفس وخاصة في بداية نوبة الخوف، إلا أنه يمكن تمييز الخوف، وهو كالقلق أيضا

إشارة منبهة، على أنه استجابة من قبل الإنسان لتهديد معروف محدد وظاهر. وقد لا يكون من السهل دائما التمييز بين القلق والخوف؛ لأن الخوف نفسه قد ينتج عن سبب داخلي في اللاشعور يعوض عنه شيء مادي وظاهري يخاف منه الإنسان. وتفرق نظريات التحليل النفسي بين الاثنين موضحة على سبيل المثال بأن الشعور بالخوف الذي ينتج عن اقتراب سيارة مسرعة من شخص يعبر الطريق يختلف عن شعور القلق الذي ينتابه عندما يكون جالسا لأول مرة وسط جماعة غريبة عنه.

ولقد أدى التعقيد الذي طرأ على الحياة في وقتنا الحاضر وسرعة النمط الذي تميزت به، بالإضافة إلى ما جد من تغير في بعض القيم الاجتماعية والأسرية والمعتقدات الدينية إلى خلق نوع من القلق والصراع لدى الأفراد وأيضا المجتمع ككل. وازداد الاهتمام بالقلق في الوقت الحاضر للعلم بمدى تأثيره على الأفراد وسلوكهم وقدرتهم على التأقلم والتكيف مع أحداث الحياة والظروف المختلفة التي يعايشونها في مجتمعهم، خاصة وأن للقلق علاقة بالكثير من مجالات وظروف الحياة المختلفة بالإضافة إلى علاقته بالأمراض العضوية المختلفة بما فيها الأمراض النفسية. ولهذا فإن القلق شعور طبيعي وضروري يحفز الإنسان على التخطيط لمواجهة متطلبات حياته والابتعاد عما قد يهدد صحته وسلامته وكيانه، ويساعده على التأقلم مع الظروف المختلفة التي يمر بها. ومن أمثلة ذلك قلق الطالب أثناء فترة الامتحانات، مما يدفعه إلى المذاكرة لضمان نجاحه، والقلق الذي ينتاب الطفل في أول أيام الدراسة وخوفه من الإنفصال عن أهله وبيته، و كذلك القلق الذي يشعر به أي إنسان تجاه المرض أو الموت مما يجعله يقي نفسه من التعرض لمسببات المرض أو المخاطر التي تؤدي إلى الموت. ويتضح من ذلك أن القلق

يصاحب الفرد في جميع مراحل حياته، وكذلك في فترات التغيير وخوض التجارب الجديدة.

إلا أن القلق قد يصبح مرضا يعاني منه الإنسان إذا بدأت الأعراض بالظهور واستمرت لفترات طويلة دون وجود سبب واضح لذلك، وخاصة إذا أدى ذلك إلى إعاقة المريض وربما عجزه عن ممارسة عمله ونشاطاته اليومية المختلفة. وقد تصل به الحال إلى أن يبقى محدد الإقامة في بيته أو في نطاق ضيق في مجتمعه. ولهذا فإن القلق المرضي يعتبر استجابة غير ملائمة من حيث حدة الأعراض أو الفترة التي تستغرقها. وتفسر النظريات النفسية القلق المرضي على أنه تضارب بين دوافع داخلية غير متوافقة أو منسجمة مع بعضها مما يسبب صراعا داخل الإنسان بين متطلباته الداخلية التي يمثلها الـ"هو" وواقع العالم الخارجي الذي يمثله الـ"أنا الأعلى".

ولهذا يتوجب على الطبيب المعالج التمييز بين القلق العادي العابر وبين القلق المرضي ودرجاته المختلفة. ويمكن تمييز القلق المرضي بالنظر إلى ما يعتقده المريض وأهله وأصدقاؤه وما يراه الطبيب المعالج بحيث يكون المقياس هو سلوك المريض وقدرته على التكيف. فإذا ثبت أن المريض مصاب بقلق مرضي فإنه يجب أن يخضع لتقييم نفسي وعصبي والتنبه إلى ما إذا كانت الأعراض سببها القلق أو هي ناتجة عن مرض آخر كالاكتئاب أو اضطراب في وظيفة إحدى الغدد الصماء كالغدة الدرقية أو أي عضو آخر من أعضاء الجسم، إذ أن جميع الأعضاء مرتبطة ببعضها وتتأثر من اختلال وظيفة أي منها.

ويصيب القلق المرضي حوالي ١٠-١٥٪ من الناس، وهذه النسبة مستقاة من دراسات أجريت على سكان الولايات المتحدة الأمريكية. وتشمل هذه النسبة الإصابة بمرض القلق (اضطراب القلق العام) بالإضافة إلى مجموعة أخرى من الأمراض تشمل اضطرابات الهلع والرهاب والوسواس القهري. وصنفت هذه الأمراض في مجموعة واحدة لكون القلق هو العرض الأساسي المشترك فيما بينها على الرغم من اختلاف سبل العلاج واستجابة كل منها لها، ولهذا فهي تعتبر أمراضا غير متجانسة.

أما اضطراب القلق العام فهو اضطراب متأزم ومزمن يستمر لفترة تزيد عن ٦ أشهر. وهو قلق غير واقعي ومبالغ فيه بالنسبة لما يمر على المريض من ظروف الحياة المختلفة. ويصيب المرض حوالي ٢٪-٥٪ من السكان قد يعاني بعضهم من أعراض مرضية أخرى كالهلع والقلق المصاحب للاكتئاب واضطرابات الشخصية. وتبلغ نسبة إصابة الرجال إلى النساء ١ : ٢، إلا أن نسبة المتلقين للعلاج في المستشفى واحدة لكلا الجنسين. ويصيب اضطراب القلق العام المرضى في العشرينات من أعمارهم، على الرغم من كون أي فرد معرضا للإصابة به في أي مرحلة عمرية. وتبلغ نسبة من يطلب المساعدة الطبية النفسية من المرضى ثلثهم فقط، بينما يلجأ الباقي إلى استشارة الطبيب العام أو أطباء القلب أو الرئة.

وتعتبر الأعراض الفسيولوجية المتعلقة بالجهاز الدوري والتنفسي أقل حدة في اضطراب القلق العام عنها في اضطراب الهلع، بينما تكاد تتماثل حدة الأعراض التي تتعلق بالجهازين الهضمي والعضلي في كلا الاضطرابين، ويمثل الاكتئاب أحد الأعراض الشائعة في اضطرابات القلق.

عوامل الاستعداد للإصابة بالمرض:

١- العوامل الوراثية:

تشير بعض الدراسات إلى كون العامل الوراثي والجينات سببا يلعب دورا أساسيا للإصابة بالقلق. وقد اتضح أن حوالي ٢٥٪ من أقرباء المريض من الدرجة الأولى مصابون بالمرض. والنساء أكثر عرضة للإصابة به من الرجال. وأشارت دراسات التوائم إلى أن نسبة الإصابة بين التوائم أحادية البويضة تصل إلى ٥٠٪ بينما تكون حوالي ١٥٪ بين التوائم ثنائية البويضة.

٢- العوامل البيولوجية:

تدل الدراسات أن للمرسلات العصبية مثل النورإبينفرين والسيروتونين في الفص الأمامي والجهاز الطرفي للمخ علاقة سببية في تكوين الفيزيولوجيا المرضية لهذا الاضطراب. وقد اتضح أن هناك زيادة في التوتر في الجهاز السيمبثاوي التعاطفي وبطء في التكيف لمنبهات الضغوط النفسية.

أعراض المرض ومميزاته:

يتميز القلق المرضي بأنه غير واقعي ومبالغ فيه تجاه اثنين أو أكثر من أحداث الحياة المختلفة لفترة قد تتجاوز ٦ أشهر كالقلق مثلا على أحد الأبناء وعلى الناحية المادية من غير وجود أي داع لذلك. وقد تتغير مادة القلق في حالة الأطفال والمراهقين فتكون بسبب الدراسة أو الرياضة أو الأداء الاجتماعي.

وتشمل الأعراض التي يعاني منها مريض القلق ما يلي:

- رجفة وشعور بالاهتزاز.
- توتر وآلام عضلية.
- إحساس بالتعب والتململ.
- إحساس بضيق التنفس والاختناق.
- خفقان القلب وتسارع دقاته.
- تصبب العرق وبرود الأطراف.
- جفاف الحلق وصعوبة البلع.
- دوار وشعور بفقد التوازن.
- غثيان وقيء وإسهال.
- إحساس بالحرارة أو البرودة في الوجه والجسم.
- تكرار التبول.
- صعوبة التركيز.

- إضطراب النوم وتقطعه.

- عدم القدرة على تمالك الأعصاب.

فمثلا كانت الأعراض التي تظهر على سامر عندما يتعرض لنوبات القلق هي تصبب العرق من وجهه وجسده بغزارة، مع صعوبة في التنفس وبرودة تؤدي الى إزرقاق شفتيه وأجزاء من جسمه، وخفقان شديد في القلب، جعل الطبيب يشك أنه مصاب بمرض في القلب. وكان سامر يعاني أيضا من رجفة وجحوظ في العينين وكوابيس تصيبه بالهلع كل ليلة، ويتخيل وجه أمه وهي تخاطبه.

ويمكن النظر إلى أعراض القلق على أنها مكونة من جزئين أساسيين هما وعي المريض بالإحساسات الفيزيولوجية كخفقان القلب وضيق التنفس والارتجاف وتصبب العرق، بالإضافة إلى وعيه بكونه عصبيا ومضطربا أو خائفا. وقد تزداد درجة القلق إذا أحس الفرد بالخجل من معرفة الناس أنه قلق. الا أنه يكتشف بأن الآخرين لا يتعرفون على قلقه، وإن استطاعوا ذلك فهم لا يقدرونه ولا يرون أي داع لشدته. ويؤثر القلق على التفكير والإدراك والتعلم، حيث يسبب خلطا في الإدراك بالنسبة للمكان والزمان وحتى للأفراد ومعنى الأحداث الجارية. وهذا بدوره يؤثر على التعلم حيث يقلل من التركيز والاسترجاع لمخزون الذاكرة. **ولحسن الحظ أن نوبات القلق التي عانى منها سامر كانت تأتي في فترات متباعدة، فلم تؤثر على تحصيله العلمي.**

ويعتمد القلق بدرجة كبيرة على الناحية الانفعالية للمريض التي تعتمد على الانتقاء. حيث ينتقي المريض سببا دون غيره ليكون مصدر قلقه، فإذا لم يستطع إيجاد المبررات لخوفه فإن قلقه

سيزداد، وبالتالي تزداد الأعراض المصاحبة. أما إذا استطاع أن يقنع نفسه بمبررات لائقة فإنه ينجح في التقليل من شدة قلقه لكنه قد يفشل في أخذ الاحتياطات اللازمة.

ومن الملاحظ أن سبب نوبات القلق التي كانت تعتري سامر هو هاجس الموت الذي ظل يلاحقه منذ وفاة والدته وهو في الخامسة من عمره.

سير المرض:

تدل نتائج الدراسات أن أحداث الحياة هي السبب الأساسي لبداية ظهور القلق المرضي الذي قد يعقب أيضا الإصابة بمرض الاكتئاب الحاد. وتؤكد هذه المعلومات أن أحداث الحياة السلبية تزيد بدرجة كبيرة من احتمال الإصابة بالمرض وتطوره لدى بعض الأفراد المعرضين. وقد تستمر أعراض القلق مدى الحياة لدى المصابين بالحالات المتأزمة والمزمنة، كما يتعرض حوالي ٢٥٪ من مرضى القلق للإصابة باضطراب الهلع.

العلاج:

يتم علاج معظم حالات القلق في العيادة الخارجية، ولا يحتاج الدخول إلى المستشفى لتلقي العلاج إلا عدد محدود من المرضى. ويتطلب العلاج في جميع الحالات تعاون المريض مع الطبيب المعالج والبقاء تحت إشرافه حتى يتمكن من متابعة العلاج وتقييم التطورات المرضية والأعراض الجانبية أو المضاعفات الناتجة عن العلاج. ومن وسائل العلاج المتبعة ما يلي:

١ العلاج النفسي:

يعتمد العلاج النفسي على وضع خطة للعلاج في ضوء الأسباب التي تكون قد أدت إلى حدوث المرض. ويتطلب نجاح العلاج إدراك المريض وتفهمه لماهية العلاج النفسي وتعاونه مع الطبيب في اتباع خطوات العلاج المختلفة. ويلاحظ لدى الكثير من المرضى انخفاض حدة القلق لديهم عند مناقشتهم للصعوبات التي تواجههم مع طبيب مهتم ومتعاطف معهم. كما أن تشجيع المريض على مواجهة المواقف المختلفة التي تسبب له القلق وتعويده على التحدث مع الأخصائي النفسي عن مشاكله يساعدانه كثيرا حتى ولو لم يؤديا بالضرورة إلى الشفاء. وعادة ما تكون مهمة العلاج سهلة في تخليص المريض من الصراع الذي يمر به ومن الأعراض التي يعاني منها إذا كان القلق ناتجا في الأساس عن عوامل خارجية. فإذا اتضح للطبيب المعالج تدخل عوامل خارجية، يحاول وبمساعدة المريض وأهله تغيير البيئة المحيطة به المسببة للقلق، مما يؤدي إلى تقليل الضغوط النفسية التي يعاني منها المريض، وتحسين علاقاته مع من حوله، ومساعدته على التأقلم في عمله ونشاطاته المختلفة، وهذا بدوره سيؤدي إلى إنجاح العلاج بقدر كبير. وقد يستغرق العلاج وقتا أطول وجهدا أكبر إذا كان القلق ناتجا عن صعوبات عصبية وشخصية لها علاقة بتركيب المريض وشخصيته مما يتطلب إعطاءه علاجا نفسيا يعتمد على تطوير بصيرته.

ويعتبر العلاج السلوكي من أهم المناهج المتبعة لعلاج مرض القلق، ويعتمد على تعليم المريض إستراتيجيات التأقلم والارتخاء والتأمل والتغذية الرجعية.

٢ العلاج بالأدوية:

وصف الدواء لمريض القلق العام إما بمفرده أو بالإضافة إلى العلاج النفسي، ويعتمد ذلك على وضع المريض وأعراضه كما يقيّمها الطبيب المعالج. ومن الأدوية المستخدمة في العلاج مضادات القلق والاكتئاب والحساسية وأنواع أخرى. ومن أمثلة هذه الأدوية ما يلي

,فاليوم.

, ليبريوم.

, أتيفان.

, ليكسوتانيل.

,بوسبار .

,تريبتيزول.

, لوديوميل.

, توفرانيل.

, بروزاك.

, بارنيت.

,ناردیل.

, فينيرغان.

, إنديرال.

الآثار الجانبية للأدوية:

وينتج عن استعمال هذه الأدوية أعراض جانبية أتى ذكر معظمها في مواقع أخرى من هذا الكتاب. أما مضادات القلق فمن أهم الأعراض الجانبية التي تسببها ما يلي:

- الضعف والتعب.
- الارتخاء والنعاس .
- فقد التوازن والترنح.
- تثبيط التنفس .
- إنخفاض النبض وضغط الدم.
- الخلط الذهني.
- ضعف التركيز والتذكر.

- بطء الكلام ومضغه .

- الإدمان .

وعند تولد الإدمان يمكن أن تظهر أعراض سحب هذه الأدوية من الجسم عند التوقف عن تعاطيها لمدة يومين أو أكثر. ومن هذه الأعراض ما يلي:

- تنمل في الأطراف.

- إضطراب المزاج.

- الغثيان.

- إفراز العرق.

- تقلص العضلات.

- نوبات صرع.

الفصل الرابع

(١)

الوهم

جلست سميرة في صالة بيتها وهي تنظر إلى ساعة يدها من حين لآخر. لقد تأخر زوجها وهو يعرف مدى صعوبة إيجاد موعد مع هذا الطبيب الذي يتوافد كثير من المرضى إلى مستشفى الطب النفسي لأجله. نظرت من النافذة وراحت تفكّر... إن زوجها في حالة انشغاله يرسل لها ساعي المكتب الذي يعمل أيضا سائقا... ثم عادت ونظرت إلى ساعة يدها مرة أخرى وتقدمت من الهاتف ورفعت السماعة وأدارت رقما ثم قالت في عجل:

- أريد تاكسي بسرعة على العنوان المذكور. وصمتت قليلا ثم أردفت: ربع ساعة على الأكثر. غير معقول سأخسر موعدي، ألا تستطيع إرسال تاكسي آخر يكون قريبا من منزلي.

وأقفلت السماعة، وحملت حقيبتها ورزمة مفاتيح كانت على طاولة في المدخل، وخرجت مسرعة نحو سيارة تربض في المرآب،

فأدارتها وضع المكان بهدير السيارة وجلست قليلا بانتظار قلق.. وهي تردد لنفسها - لن أسامحه على نسيانه موعدي - لن أسامحه- هو يعلم كم أكره السياقة في الشوارع الكبيرة - هو يعرف أنني لا أحب قيادة السيارة، لكنه يتركني لمواقف حرجة حتى أقودها بنفسي - لا بأس إن قدت في الشوارع الجانبية لزيارة صديقة أو شراء ما يلزم البيت من دكان قريب - ولكن أن أخرج إلى الشارع العام وأقود سيارتي بين السيارات التي تمر مسرعة كالشهب كي أصاب بمكروه أو ألقى حتفي فهذا غير معقول. يقول يحبني ويتركني لمصير مجهول؟ وانسابت الموسيقى الهادئة في شريط تسجيل يشعرها بالهدوء والاطمئنان.

تحركت السيارة ببطء وراحت تسير في شارع ضيق بعد الخروج من المجمع السكني واطمأنت بعض الشيء، وقالت لنفسها: كثيرا ما أظلم فؤاد فهو لا يتأخر عن إرضائي ولكن يبدو أنه انشغل بأمر هام أو قد اتصل بي لأرتب أمري أثناء وجودي في الحمام. ووصلت سميرة إلى المفترق لتأخذ يمينها إلى الشارع العام والسيارات تتراكض في سباق محموم، وأخذت تفكر كيف ينبغي لها أن تأخذ يسار الشارع كي تصل إلى تقاطع يؤدي إلى الشارع المقابل، حيث عيادة الطبيب في المستشفى الذي لا يبعد أكثر من عشر دقائق حتى لو سارت ببطء شديد. ثم انحنت بسيارتها إلى المنعطف خلف سيارة صغيرة بانتظار سيل السيارات المندفع على الشارع الآخر.

نظرت سميرة في المرآة لترى سيارة سوداء تسير مسرعة باتجاهها لتنحني في نفس المنعطف خلفها، وعلقت نظراتها في المرآة والسيارة السوداء تزداد اقترابا منها. وفجأة تحولت الموسيقى الهادئة إلى ضجيج صاخب في أذنيها، واصطبغ وجهها بحمرة غريبة وراح صدرها يعلو وينخفض في خفقان سريع،

خوفا من الشبح الأسود الذي يلاحقها. وتملّكها ذلك الشعور المفزع – الخواء والفراغ وكأن جسدها قد أصبح ريشة تتقاذفها نسمة هواء تحتضر، وسقط قلبها كعصفور جريح يحاول التقاط أنفاسه الأخيرة. وامتدت أناملها المرتجفة إلى قارورة بها أقراص مهدئة اعتادت أن تأخذ منها حتى أدمنتها ، لكن القرص التصق بلسانها المتخشب وقد اعترى حلقها الجفاف. حينئذ جحظت عيناها وانكمشت في مقعدها وهي ترتجف خوفا وهلعا.

وتجمدت ذراعا سميرة الواهيتان على المقود وانزلقت قدمها عن الكابح فاهتزت السيارة المتوقفة لتصطدم اصطداما خفيفا بالسيارة أمامها. وجلست في مقعد السيارة وهي في ذهول لا تدري ما يدور حولها، وقد فقدت السيطرة تماما على نفسها والسيارة، ولولا رحمة الله ووجود السيارة أمامها لانزلقت سيارتها نحو الجانب الآخر ولتعرضت لحادث مريع. ونظرت سميرة إلى الوجوه والعيون تبحلق بها لتتأكد من سلامتها وهي في شبه غيبوبة عما حولها، ويدها تتحسس بطنها وهي تتمتم بكلمات مبهمة عن موعدها مع الطبيب وعن جنين قد يصيبه مكروه. كالطفل الذي فقدته إثر حادث سيارة في مرة سابقة. تنظر بعينيها الزائغتين إلى فراغ مجهول، إلى وجوه لا سمات لها وعيون تنظر إليها في ذهول. وقد تحول وجهها الجميل إلى لوحة سريالية لكثرة ما اختلطت فيه الأصباغ من التجهم والقرف.

وحملها سائق السيارة السوداء إلى المستشفى القريب. واتصل أحدهم بزوجها الذي حضر على عجل ودخل معها إلى الطبيب النفسي في نفس المستشفى ليعطيها الدواء الذي اعتادت على أخذه كلما عاودتها أعراض المرض الذي يفقدها السيطرة الكاملة على عقلها وجسدها.

(٢)

الامتحـــان

وقف خليل بقامتـه المديدة ينظر إلى صورتـه في مرآة المصعد وهو بكامل أناقتـه بياقـة قميصـه الأبيض المنشاة وربـاط عنقـه الأنيق. إبتسم ارتياحا وتقدم بخطوات واثقـة أخذت بالتبـاطؤ والتخاذل كلما اقترب من هدفـه. ثم وقف قليلا ليستجمع أفكاره المتلاحقة مع أنفاسـه. كم يكره مقابلة الرؤساء والمدراء - أي مدير حتى لو كان مدير قسم في دائرة- فنظرات الإنسان الجالس في كرسي السلطة -أي سلطة كبرت أم صغرت- تجعله يفقد المقدرة على التركيز، فتتبخر الكلمات التي أعدّها بل حفظها عن ظهر قلب، ويصبح كالغريق يبحث عن مخرج، عن قشة واهية تنجيه من ورطة مشى إليها بنفسه طوعا.

أخرج منديله من جيب سترتـه، وجفف العرق المتصبب من وجهـه، وقال لنفسـه: "إن "حامد" صديق وزميل قبل أن يترقى ويصبح رئيس قسم، وعلاقة الصداقة السابقة بيننا دافع لأن يدعوني لمقابلته لنتكاتف بجهدنا كما كنا نفعل دائما .

واستقبلته سلوى بابتسامتها المشرقة قائلة من خلف مكتبها:

- أهلا أستاذ خليل - مبروك لصديقك الأستاذ حامد مركزه الجديد فهو خير من يملأه، والعقبى لك لكي تصبح أنت أيضا مديرا أو رئيسا.

ثم ابتسمت وأردفت في دلال:

- تفضل فالرئيس بانتظارك، ولكن لا تنسى أن تذكرني له بكلمة خير.

وكان للقاء سلوى وكلماتها فعل السحر في نفس خليل، فاشتدت قامته وتقدم بخطى ثابتة نحو مكتب المدير.

وبدأ حامد في الحديث مع خليل قائلا:

- أهلا بك في مكتب صديقك ورئيسك. سنعمل سويا كالسابق وتكون عضدا لي في مهامي الجديدة بما أعرف عنك من جد وتفان في العمل.

واستمر حامد في الحديث لبضع دقائق ثم سكت فجأة؛ ليسمع تعليقا أو ردا من خليل الجالس أمامه، وقد تكوم في كرسيه والعرق يتصبب من وجهه بغزارة، وابيضت شفتاه وعلق لسانه في سقف حلقه، وكأنه شلّ عن النطق بكلمة واحدة. وقفز حامد من مقعده وأخذ يهزه بقوة وقد هاله أن يرى صديقه "خليل" قد فقد السيطرة على لسانه وعقله بصورة كاملة، فأمسك به ليوقفه ثم سار به إلى

مقعد جلدي وجلس بجانبه بعد أن أحضر له كوب ماء وهدأ من روعه حتى استعاد خليل بعض نفسه.

وتكررت لقاءاتهما في مكتب حامد الذي كان يحرص على أن يجلسا معا على المقاعد الجلدية، ويحاول أن يزيل من نفس خليل الرهبة والخوف من مقابلة رئيسه بالتبسط معه في الحديث والعمل الدؤوب على تحضير بعض التقارير الهامة التي يحضرها خليل لتقديمها في اجتماع رؤساء الأقسام في الشركة. وارتاح خليل لمعاملة صديقه له، وعكف على العمل ليلا ونهارا ليقدم تقريرا وافيا عن القسم الذي يتولى حامد رئاسته.

وفي اليوم المحدد لاجتماع رؤساء الأقسام بالإدارة أصر حامد أن يصطحب معه "خليل" لحضور الاجتماع كي يشرح تفصيلا التقرير الذي أعده، كما فعل بعض رؤساء الأقسام الأخرى.

دخل خليل بصحبة حامد إلى غرفة الاجتماع، وجلس بجانبه كما جلس الآخرون حول طاولة مستطيلة وقد جلس على رأسها المدير العام.

نظر خليل من مقعده إلى وجوه الجالسين حول الطاولة وتعلقت عيناه في المقعد الرئاسي، وتوقفت أنفاسه فجأة. إذ تهيأ له أن العيون كلها متجهة إليه ترصد نظراته وحركاته، فازداد اضطرابا وخوفا، وتملّكه ذلك الشعور بأنه يسقط من قمة جبل عال وقلبه يهوي بين قدميه، وضربات طبول قلبه تزداد خفقانا وعنفا، حتى صمت آذانه وأخذت أنامله ترتجف فوضعها على ركبتيه كي يخفي اضطرابه وخوفه، لكن قلقه وخوفه أصابا جسده كله برجفة وكأنه يقف عاريا في صقيع جبل من جليد.

بعد أن رحب المدير العام بالحاضرين بدأ كل رئيس قسم يشرح ما قدم من تقرير؛ ليناقش جدواه الحاضرون. وعندما جاء دور حامد نظر إلى خليل بجانبه فوجده قد أغرق بدلته الأنيقة من تصبب العرق، وقد تجهم وجهه وابيضت شفتاه وجفّ حلقه، وعيناه زائغتان. هزه ببطء ثم بعنف، فوجده شارد الذهن والتركيز، وقد أصيب لسانه بشلل كامل. وحين صدرت بعض الكلمات المبهمة بتأتأة مملة عرف حامد أن "خليل" قد فقد السيطرة الكاملة على نفسه، بحيث لم يعرفه أو يميز أياً من الحاضرين حول الطاولة. وتوقف الاجتماع فجأة وأمسك حامد وآخرون بخليل وحملوه إلى السيارة التي أوصلته إلى المستشفى.

(٢)

الرهـــاب

يعتبر الرهاب خوفا غير منطقي أو معقول تجاه شيء، أو نشاط، أو موقف معين ينتج عنه تجنب ما يسبب هذا الخوف. ويعرّفه البعض بأنه خوف من الإهانة والإحراج أمام العامة، بينما يعتقد آخرون أنه ناتج عن اختلال في توتر الـ أنا . ويكون المريض مدركا أن هذا الخوف نابع من أعماقه، وقد لا يكون له ما يبرره من واقع حياته. وهو يختلف عن رهاب الساحة الذي لا يخشى فيه الفرد العامة من تقييمهم لسلوكه بدرجة كبيرة. ويشمل الرهاب الخوف من الأكل في المطاعم واستخدام المراحيض العامة والتحدث أمام الجمهور ومواجهتهم.

ويصيب الرهاب ٣-٥٪ من سكان الولايات المتحدة الأمريكية، وربما تكون نسبة الإصابة في الدول الأخرى مقاربة لهذه النسبة. ويزداد احتمال الإصابة بالرهاب في فترة المراهقة، رغم أنه قد يصيب الأفراد في أعمار أخرى. ولا يوجد هناك دليل يشير إلى اختلاف معدلات الإصابة في الرجال عنها في النساء.

بدأ الاهتمام بالرهاب في القرن التاسع عشر حين وضع بيير جانيت أول تصنيف للأمراض العصابية وقسّمها إلى قسمين هما: الهيستيريا والوهن النفسي الذي يشمل الرهاب والقلق والوسواس والاكتئاب. إلا أن الفضل في تصنيف الاضطرابات العصابية يرجع إلى سيجموند فرويد الذي قام بالعديد من الدراسات بين عامي ١٨٩٣-١٨٩٥ توصل من خلالها إلى أهمية الفصل بين الرهاب والوسواس القهري عن غيرهما من الاضطرابات العصابية. إلا أنه اكتشف أيضا العلاقة بين الرهاب والقلق العصابي فقام بالفصل بين الرهاب والوسواس القهري.

عوامل الاستعداد للإصابة بالمرض:

١- العوامل الوراثية:

يعتقد بعض واضعي النظريات البيولوجية أن المرضى المصابين بالرهاب تنقصهم القدرة على التأقلم والاعتياد على بعض الأوضاع والمواقف. وتشير بعض الدراسات أن لدى الأفراد المصابين بالرهاب البسيط أقارب من الدرجة الأولى مصابين بنفس المرض. إلا أن هذه النتائج ينقصها الدليل القطعي على صحتها، حيث لم تجر أي من دراسات التبني في هذا المجال لتأكيدها مما يثير احتمال تأثير البيئة والظروف المحيطة على الفرد المصاب بالمرض والتسبب في مرضه.

٢- عوامل السن والجنس :

كما أشير في المقدمة، تزداد نسبة احتمال الإصابة بالرهاب في سن المراهقة، ولا يوجد دليل على اختلاف النسبة بين الجنسين.

٣- عوامل التحليل النفسي :

وضع سيجموند فرويد تفسيرا تحليليا للرهاب الاجتماعي، وهو الخوف من المجتمع، أو من مواجهة الناس. وافترض فرويد أن وظيفة القلق الأساسية هي تنبيه الـ"أنا" بوجود دافع مرفوض من اللاوعي يحاول شق طريقه للوجود، وهذا بحد ذاته ينبه الأنا كي يقوّي من دفاعه ضد هذه القوة الغريزية التي تهدده. كما يعتقد فرويد أن اضطراب الرهاب وهستيريا القلق هما نتيجة لصراعات في طفولة هذا الفرد ناتجة عن عقدة أوديب. ويعتقد أوتو فينكل أنه يمكن للفرد أن يخفي قلق الرهاب وراء سلوكيات وتصرفات معينة مثل الإنكار، إما لخطورة الموقف الذي يتعرض له الفرد أو بسبب خوفه وخشيته منه. ويلاحظ أن الأفراد الذين يتبعون مثل هذه السلوكيات عادة ما يبحثون عما هو خطر ويقبلون عليه بكل لهفة فعلى سبيل المثال قد يكون الرياضيون الذين يمارسون الألعاب الخطرة كالقفز بالمظلات الهوائية وتسلق الجبال هم ممن ينتهجون هذا النوع من السلوك.

أعراض المرض ومميزاته:

يتميز الرهاب بوجود قلق شديد عند تعرض المريض لظرف أو موقف معين **ومثلما كانت سميرة تخشى قيادة السيارة في الشوارع العامة الكبيرة، ومثلما كان خليل يقلق من الاجتماع برؤسائه أو حتى الحديث معهم** ويشبه هذا القلق اضطراب القلق العام من حيث الأعراض الجسمية والعقلية التي تنتج عنهما. وكما قد يصاب ثلث المرضى بالاكتئاب، قد يؤدي المرض ببعضهم إلى الإدمان على الكحول والمخدرات أو نوع معين من الأدوية، **كما كانت**

سميرة مدمنة على نوع من الأقراص المهدئة التي كانت تتناولها متى ما تعرضت لموقف يثير أعصابها.

ويعتبر احمرار الوجنتين من أكثر الأعراض شيوعا في الرهاب الاجتماعي. أما الأعراض الأخرى التي يعاني منها مرضى الرهاب فهي

- تجنب المواقف التي تسبب الخوف والقلق.
- عدم القدرة على مواجهة العامة والتحدث أمامهم.
- صعوبة الأكل وبلع الطعام أمام الآخرين والغص به.
- تجنب استخدام المراحيض العامة.
- إرتعاش اليد أثناء الكتابة أمام الآخرين.
- عدم القدرة على إجابة الأسئلة بإجابات منطقية أو صحيحة.

سير المرض:

يبدأ المرض عادة بالظهور بعد التعرض لضغوطات نفسية واجتماعية أو لحادث معين، وذلك قبل ظهور الأعراض. **ونحن قد رأينا أن سبب خوف سميرة من قيادة السيارة في الشوارع الكبيرة هو تعرضها لحادث أفقدها جنينها في حمل سابق.**

وقد يمر المريض المصاب بالرهاب الاجتماعي بمرحلة متأزمة. إلا أن هناك ما يشير إلى تلاشي أعراض المرض بعد منتصف العمر. ويعيش معظم المرضى حياة عادية جدا ويتمكنون من تجنب المواقف والظروف التي تسبب لهم الرهاب. ولا توجد أية دراسات حاسمة تدل على ما تتركه اضطرابات الرهاب من أثر على المرضى المصابين.

العلاج:

١ العلاج بالأدوية

توصف الأدوية لمريض الرهاب لمساعدته على التغلب على أعراضه، إما بمفردها أو بالإضافة إلى العلاج النفسي. وتشمل الأدوية التي توصف للمريض ما يلي:

أ- مضادات الاكتئاب مثل

,البارنيت .

, النارديل .

, التريبتيزول.

, اللوديوميل وغيرها.

وقد تمر فترة تستغرق ٣-٤ أسابيع قبل أن يبدأ المريض بالشعور بتحسن أعراضه كما قد تعاود الأعراض الظهور مرة أخرى إذا توقف المريض عن تناول الدواء.

ب- مضادات القلق ومن أمثلتها:

,الفاليوم .

, الليبريوم.

,الليكسوتانيل.

,الزنكس .

ج- أدوية أخرى مثل الإنديرال.

٢ العلاج النفسي:

يهدف هذا النوع من العلاج إلى تطوير بصيرة المريض ويساعده على معرفة أسباب الرهاب وظاهرة الكسب الثانوي ودور المقاومة النفسية، ويعينه على التكيف والتأقلم مع المواقف التي قد تسبب له القلق باتباع وسائل صحيحة. وكان الأخذ بمنهج التحليل النفسي لعلاج حالة الرهاب العصابي اختياريا في بداية تطوره إلا أنه قد ثبت أن المريض قد لا يستطيع التخلص من أعراض الرهاب بمجرد معرفته بالعوامل التي تسبب له الرهاب ما لم يتم كذلك معرفة وتحليل الصراعات اللاشعورية التي تدور بداخله. كما أن استمرارية تجنب هؤلاء المرضى للمواقف التي تسبب لهم الرهاب قد تؤدّي بهم إلى الإصابة بمرض القلق المزمن وما يصاحبه من أعراض.

٣ العلاج السلوكي:

يعتبر العلاج السلوكي من أكثر طرق العلاج فعالية. إلا أنه يجب توفر بعض المتطلبات الأساسية لضمان نجاح العلاج من أهمها:

طلب المريض للعلاج

- التعرف بوضوح على المشكلات والأهداف المرجوة من العلاج

- وجود استراتيجيات بديلة للتعامل مع الموقف

ويوجد الكثير من الطرق لتطبيق العلاج السلوكي من أشهرها ما اتبعه جوزيف وولبي وهو ما يعرف بإزالة الحساسية بطريقة منهجية. ويُعرّض المريض في هذا النوع من العلاج لمجموعة من العوامل التي تسبب له القلق بدرجات متفاوتة. ويتم عرض هذه العوامل من أقلها تأثيرا إلى أكثرها تسببا في قلق المريض وخوفه. وباستخدام الأدوية المهدئة أو الاسترخاء بواسطة بعض التمارين يقوم المريض بالتحكم في ردود فعله العقلية والجسمانية. وبعد أن يتقن المريض ذلك يتم تعليمه كيفية الربط بين ما تعلمه وما يصادفه من مخاوف أثناء فترة العلاج أو بعده. ويستمر المريض على هذا العلاج إلى أن يصبح في استطاعته التخلص من خوفه وما يسببه له هذا الخوف من ألم.

ومن الطرق الأخرى المتبعة في العلاج السلوكي منهج تعريض المريض للأمور التي يرهبها بواسطة التخيل، فيتم تعريضه للوضع الذي يرهبه لأطول مدة ممكنة حتى يصل به الحال إلى عدم

إثارة الوضع للخوف لديه. ويتطلب هذا النوع من العلاج كذلك تعريض المريض للموقف الحقيقي الذي يرهبه لتحقيق نفس الغرض.

٤ طرق علاجية أخرى:

أ- التنويم المغناطيسي ويعتبر إحدى الطرق العلاجية المساندة. وتساعد هذه الطريقة المريض على تقبل العلاج والتأكد من صحة ما يقوله له الطبيب بأن ما يرهبه ليس خطرا عليه أو على حياته أو صحته. كما أنه يمكن تدريب المريض على الأسلوب المتبع في هذا النوع من العلاج ليستخدمه كوسيلة للاسترخاء إذا ما عاودته أعراضه أو صادفه موقف مشابه.

ب- علاج الدعم النفسي والعلاج النفسي العائلي، ويعتبران من الطرق العلاجية ذات الجدوى في علاج الرهاب. ويساعد النوع الأول المريض على مواجهة مخاوفه، **كما يتبين لنا من الأثر الكبير للدعم الذي أبداه حامد لخليل، مما جعله يعتاد الجلوس مع رئيسه والتناقش معه في أمور العمل، بعد أن كان يستحيل عليه ذلك حتى لو كان رئيسه صديقا له منذ فترة طويلة. إلا أن الحالة أصابته مرة أخرى في الاجتماع العام لأنه لم يكن معتادا على حضور اجتماعات رؤساء الأقسام.**

ويلعب النوع الثاني دورا كبيرا في العلاج لا لمجرد مساعدة المريض على التأقلم مع مرضه وأعراضه، وإنما ليساعد الأسرة كذلك على تفهم المرض والتكيف مع المريض وفهم وضعه ومتطلباته.

الفصل الخامس

(١)

الهاجس

نهضت نورة من فراشها والمؤذن يدعو إلى الصلاة، فتوضأت وصلت صلاة الفجر، ونظرت إلى فراشها الذي يدعوها لدفئه الجميل في الصباح فأهملته وتوجهت إلى مكتبها لتراجع بعض الدروس؛ فالامتحانات التجريبية للثانوية العامة على الأبواب وعليها أن تركز على دراسة اللغة الإنجليزية حتى لو اضطرت إلى حفظ المادة عن ظهر قلب لتحافظ على تفوقها الدائم في مدرستها.

رتبت سريرها ونظفت غرفتها وأعدت كتبها وكراريسها في نظام متقن ككل صباح ثم خرجت لتساعد والدتها في تحضير الفطور قبل توجهها إلى المدرسة.

لبست عباءتها ونظرت من الشباك حتى رأت مريم جارتها وزميلتها تنتظرها عند الباب الخارجي فهرولت نحوها. سارت

الفتاتان تتحدثان في بشر وسعادة حتى وصلتا إلى المدرسة القريبة، وعند الباب رأتا رجلا متكوما يجلس القرفصاء، وما أن تقدمتا نحوه حتى أمسك بعباءتها لكونها قريبة منه يطلب حسنة، فنظرت إليه بازدراء لتجرئه على ما فعل. هالها منظر وجهه ويداه المرقطتان إثر حروق أو مرض جلدي. واستنكرت مريم تصرف نورة فتقدمت منه لتنفحه بعض النقود في باطن يده المعفرة بالتراب.

جلست نورة في مقعدها في الفصل وهي حائرة من غضبتها المفاجئة، وسرحت بفكرها تستعيد منظر ذلك الرجل المسكين والبثور تملأ وجهه، ويداه المعروقتان بالندوب والقذارة والذباب يرتاح على عينيه تارة وعلى تقرح ذراعيه تارة أخرى. امتدت يدها إلى عباءتها وأمسكتها بأطراف أصابعها ورمتها تحت المقعد، ولاحظت المدرسة شرود نورة وشحوب وجهها فنصحتها بأن تأخذ الإذن من المديرة كي تعود إلى البيت لترتاح.

تدثرت نورة بعباءتها مكرهة وعادت إلى البيت. وعند الباب خلعت حذاءها كعادة أهل البيت جميعا ورمت بعباءتها للخادمة كي تغسلها لها، ثم اغتسلت ولبست ثوبها وجلست تروي لأمها ما حدث لها. فأثنت الأم على تصرفها بالعودة للاغتسال والتطهر وأردفت الأم قائلة :

- الوقاية خير من العلاج والإنسان بؤرة للأمراض إن لم يق نفسه بالنظافة والتطهر. إنظري حولك وستجدين الفرق بين واحة النظافة وبين مرتع الذباب والأمراض، والفرق بين الطهارة والنجاسة كالفرق بينك وبين ذلك الرجل الوحش.

وأغلق الستار والأم تثرثر وتتحدث، ونورة لا تسمع شيئا بل تتراءى لها صور النظافة القصوى التي تتبعها أمها كنظام بوليسي في البيت لا أحد يدخل بحذاء حتى الضيوف. غسل الأبواب والكراسي والمقاعد بالصابون والفرشاة كلما زارتهم شقيقتها الكبرى عائشة مع أطفالها أو دخل غريب البيت بحذائه سهوا، فانسياب الماء لا ينقطع من البيت من غسل النوافذ والشرفات وباب المنزل حتى الباب الخارجي الذي طالما طاله الماء والصابون، حتى بكى الخشب وصدىء الحديد. ومن وسواس أمها في النظافة لم تطل إقامة أية خادمة لديهم سوى أيام أو أشهر قلائل.

وكبرت نورة والنظافة حلم يصل حد الكابوس المزعج، لكنه أصبح نشوة ونمط حياة لا يجرؤ أهل البيت بالقبول بغيره. فكتبها وكراريسها نظيفة حتى لتظن أنها لم تمسها أنامل. تغير تغليفها من وقت لآخر لما علق بالغلاف من غبار أو نقاط حبر أو غير ذلك أثناء تداوله في المدرسة، حتى أصبحت نورة مثالا للنظافة والترتيب تكتسب علامات إضافية وتشجيعية من مدرساتها جميعا، مما جعلها تشعر بتفوقها عن بقية زميلاتها. لا تأكل مما يأكلن أو تشرب مما يشربن من مقصف المدرسة أو مما تحضره بعض الزميلات من طعام أو شراب، فعين أمها تلاحقها وصوتها ناقوس يخترق رأسها يحقرها ويوبخها رغم حيطتها وحذرها، ورغم تفردها عن بقية الزميلات: ستمرضين يوما وتموتين من إهمالك لنظافة مأكلك أو ملبسك، أتذكرين حين عدت إلي من المدرسة وشعرك محشو بالقمل والصيبان؟

وكيف يتسنى لنورة أن تنسى وأمها تذكرها بحادثة أصبحت وصمة عار في حياتها؟ كانت طفلة صغيرة لا تعرف كيف تسربت

تلك الحشرات إلى رأسها من زميلة تجلس معها على نفس المقعد. وعندما اكتشفت الأم المحظور قامت بحرق بعض ملابسها ومرابيل مدرستها وأرغمتها على البقاء في البيت لبضعة أيام تخضب شعرها بالكيروسين وتسرحها بمشط حديدي قاس يحرق جلد رأسها، وتشد شعرها حتى تكاد تقتلعه من الجذور. ولم تكتف بذلك كله بل قامت بقص شعرها المسدل الطويل حتى بدت بعد تلك المحنة كصبي حليق الرأس. وصمة تذكرها بقذارتها لأشهر عدة. جرح انغرس في قلبها وصور لطفولة قلقة.

- آه كم كرهتك وحقدت عليك ونظرات الزميلات تستهزىء بي وعيونهن تتغامزن عليّ حتى وددت لو أمسكت بالمقص أو موسى حلاقة والدي لأحلق لك شعرك الذي تتباهين به وأذقتك ما أذقتني.

جرت نورة نفسها من السرير جرا وقامت لتتوضأ وتصلي صلاة الصبح وهي بين اليقظة والنوم، فقد جافاها النوم الهادىء منذ أن لمسها ذلك الرجل اللعين، واليوم عليها أن تعود إلى المدرسة لتبدأ أسبوعا جديدا حافلا بالتركيز والدراسة؛ فالامتحانات التجريبية قربت، وما عليها سوى أن تنسى ذلك الرجل الوحش وتركز على التفوق والنجاح.

وسارت نورة برفقة صديقتها في طريقهما إلى المدرسة وهي شاردة الفكر لا تسمع من حديث مريم كلمة واحدة، وما إن اقتربت من باب المدرسة حتى شعرت بدوار وضعف أفقداها توازنها، فقد رأت أو تخيلت ذلك الرجل يجلس القرفصاء قرب باب المدرسة، فلملمت عباءتها على جسدها وهرولت. وما إن وصلت باب المدرسة حتى سقطت مغشيا عليها من التعب والإعياء.

وتكرر ذلك المشهد يوما بعد آخر، تراه أو تتخيله فتشعر بدوار وضعف وتتحامل على نفسها. تدخل الفصل ولكن بإعياء وتعب وهي شاردة الذهن، تفكر بما أصابها من رجس من لمس ذلك الرجل لها ومن ذنوب قد اقترفتها حين صب الله جام غضبه عليها فأغرقها في النجاسة والرجس. وتخور قواها وتعيدها مديرة المدرسة إلى البيت.فتعود ثانية خائرة القوى. تخلع عباءتها وتغسلها بنفسها مرات ومرات... وثيابها حتى الداخلية منها التي قد يكون مسها الضر والرجس من عباءتها أو جسدها النجس. وتجلس على حافة سريرها وهي تتفصد عرقا في الأشهر الباردة، ثم تعتري جسدها رجفة خوف وهلع، فكل ما تمسه يدها نجس، أهو رجس من الشيطان. تنهض بهمة لتتوضأ وتغتسل، ناشدة الغفران والتوبة. وتقوم إلى الصلاة، وما إن تبدأ حتى تنتابها الأفكار وتشرد فتعيد صلاتها مرات ومرات، تخطئ في حساب ركعات صلاتها فتعيدها، ثم تكرر الوضوء متوهمة بأنه قد نقض وتعود إلى الصلاة. وتتكرر المأساة فلا تكمل لها صلاة. تنسى وتعيد وتتوضأ ثم تقوم للصلاة فتنسى وتدور في الدائرة نفسها. حلقة لا بداية لها ولا نهاية. ويتملكها الضجر والهوان فترمي بنفسها على السرير المتهالك كجسدها المتعب، ويئن معها في دورانها الحائر وقلقها الذي لا يهدأ. ويؤذن المؤذن لصلاة الصبح، فتقوم بإصرار للوضوء بجسد متعب وعينين زائغتين لم تعرفا الراحة والنوم، وتخطىء في قيامها وقعودها في الصلاة فتذرف الدمع هلعا من غضب الله فتقوم إلى القرآن الكريم تحاول أن تجد في قراءته بعض الراحة في كلمات الله. فتقرأ عيونها كلمات مشوشة وعقلها غائب بعيد فتضع القرآن جانبا. فالله لا يريد لها التوبة والغفران، فراحتاها نجستان لا تمسان كتاب الله فتضرب الأرض براحتها. ماذا جنت حتى يعذبها الله كل هذا العذاب فالله غفار الذنوب إلا من كفر برحمته. وهي تطلب الرحمة والله لا يرحمها ولا يغفر ذنوبها، فتضرب الأرض براحتها وقدميها وتجدف بالأنبياء والرسل وتتشكك في كل

شيء في الدنيا والآخرة - والعياذ بالله - ثم تجلس القرفصاء وتهز جسدها يمينا ويسارا وتستغفر الله والأنبياء لما زل به لسانها، وعقلها ما زال يجدف بالأنبياء والذات الإلهية. ويشتد اهتزازها حتى تخور وتفقد السيطرة على جسدها بعد أن فقدته على عقلها فتسقط على الأرض مغشيا عليها.

وتحتار الأم في مرض ابنتها وعزوفها عن كل شيء، فلا يدخل جوفها من الطعام إلا ما يقيت عصفورا، والجسد يضعف ويهزل يوما بعد يوم، والابنة عازفة عن الحياة وعن المدرسة وعن الصديقات وحتى عن مشاركة أهلها في طعام أو شراب. تسدل ستائر غرفتها أثناء النهار وتجلس في شرود وتفتحها في الليل تجلس في شرود تنظر إلى السماء وكأنها تعد النجوم أو تستلهم القمر. وكم حاولت أمها أن تأخذها إلى الطبيب كي يكشف علة جسد ابنتها التي تذوي وتذوب كقطعة من الثلج، وتحاول أن تبرر للوالد عزوف ابنتها عن الحياة تارة بالخوف من الامتحانات، وهي المتفوقة سابقا، وتارة بانقطاع الطمث عنها لهزالها وضعف جسدها. ونورة ترفض رؤية أي غريب خوفا من أن يلامسها أحد فتغرق في مزيد من النجاسة والرجس. حتى أهلها حرمت عليهم دخول حجرتها. تصرخ وتثور كلما انتهك أحدهم خلوتها، حتى أصبحت غرفتها مرتعا للقذارة والفوضى وكأنها تنتقم بذلك من أمها ومن تطرفها بالنظافة. وحين يفيض الكيل بالأم وتأمرها بالخروج من الغرفة حتى تنظفها الخادمة تضرب الحائط بذراعيها ورأسها حتى تخور قواها وتسقط على الأرض. لماذا تنظف غرفتها وهي النجاسة بعينها؟ لماذا تتوضأ والله لا يغسل ذنوبها ونجاستها برحمته؟ لماذا تصلي ولم تكمل صلاة واحدة والله لا يغفر لها تجديفها وكفرها؟ وتقوم، في حالة هستيرية، فتمزق ما يقابلها من ملاءات أو ثياب وترتمي على الأرض غارقة في بكاء وعويل.

وكان الأب يراقب ما تمر به ابنته بحسرة وألم. يستمع إلى مبررات زوجته عن مرض عضوي يحاول أن يقنع نفسه به وهو قانع بأن ابنته تمر بأزمة نفسية واختلال في سيطرة العقل على الجسد. يخاف أن يجهر بذلك حتى لنفسه. وماذا جرى لنورة التي كانت مثالا للفتاة المتفوقة في كل شيء، في أدبها وعلمها ودينها ودنياها. هل يجهر بالقول بعد أن كتمه؟ هل يعترف باختلال عقل ابنته بعد أن يبرر تصرفاتها بأعذار واهية وأسباب لا قيمة لها حتى لا يواجه الحقيقة المرة؟ ونورة الزهرة الجميلة تختفي من بين يديه كشمعة تذوب قطرة قطرة يوما بعد يوم ولحظة بعد أخرى، فجسدها يذوي مع تشوش عقلها ونضارتها تحترق مع النيران المشتعلة في عقلها المريض. ومرت أيام وليال وهو حائر بين إخفاء الواقع أو البوح به، وحالة ابنته تسوء يوما بعد آخر وزوجته لا تكف عن البكاء حزنا على حالة نورة التي ازدادت حدة بين ثورات وإغماء وشرود وبين ضمور وهزال.

ربت على كتف زوجته الباكية قائلا:

- ما نفع البكاء الآن وما جدوى نبش الماضي وتوزيع مسؤولية ما حدث لنورة من عذاب وألم؟

- نحن من فعل بها ذلك.

لا أريد البحث في موضوع لا جدوى منه الآن. المهم أن نبحث عن حل لمأساة نورة وقد نصحني طبيب صديق أن أعرضها على طبيب نفسي متخصص.

- طبيب نفسي.. أتصف ما يحدث لها بالجنون؟

- لا بل اختلال في وظائف العقل لا نعرف مدى حدته وخطورته.

- لماذا إذا لا تعرضها على صديقك الطبيب فيكون سترا وغطاءً؟

- هو طبيب للجسد وليس للعقل، وهو الذي أضاء لي الطريق بعد سرد ما حدث لنورة وهو الذي طلب عرضها على طبيب مختص.

وأجهشت زهرة بالبكاء وهي تتمتم:

لا أصدق أن ابنتي مجنونة.. لا أصدق.. لا أصدق..

وهرولت خارج الغرفة..

وأمسك جاسم بالتليفون وأدار رقما، وبيده الثانية مسح دمعة انسابت على وجهه المتجهم.

(٢)

الوسـواس القهـري

تدل كلمة الوسواس على وجود فكرة أو تفكير، وكلمة قهري على الإجبار أو الاندفاع، وتؤدي إلى الفعل الإجباري بوجود ظروف معينة.

يصيب الوسواس القهري ٢٪ -٢,٤٪ من السكان بناء على الدراسات التي تم إجراؤها في الولايات المتحدة الأمريكية. وتبدأ الإصابة به في مرحلة المراهقة وتستمر حتى فترة الشباب المبكر (٢٨-١٤ عاما)، إلا أنه قد يصيب الأطفال أيضا. وتتساوى نسبة الإصابة بالمرض بين الإناث والذكور على حد سواء إلا أنها تزداد بين المطلقين والمنفصلين والعاطلين عن العمل والمنتمين إلى طبقات اجتماعية متدنية.

وتكون أعراض الوسواس نفسية في مجملها إذ لا يعاني المريض من أية اضطرابات في الأداء الحركي أو الحسي، بل من توارد أفكار تسبب له الشعور بالضيق وعدم الارتياح، ويصحب ذلك وعي تام بظواهر انفعالية مؤلمة كالقلق والشعور بالذنب. وتتشابه هذه

الأعراض مع تلك التي تصاحب الرهاب. إلا أنه يمكن تمييز وتصنيف أعراض كل من المجموعتين بالمتابعة السريرية المباشرة لكلا المرضين.

عوامل الاستعداد للإصابة بالمرض:

١ العوامل الوراثية:

لم تجر الكثير من الدراسات لاستنباط العلاقة بين العوامل الوراثية ومعدلات الإصابة بالوسواس القهري. إلا أنه توجد دلائل تشير إلى أن بعض الحالات التي أصيبت كان لها أساس وراثي حيث وصلت معدلات الإصابة بمرض الوسواس القهري بين أقارب الدرجة الأولى إلى ٣-٧٪ مقارنة بـ ٠,٥٪ فقط في أقارب المرضى المصابين باضطرابات القلق الأخرى.

لاحظنا في القصة السابقة أن والدة نورة تعاني من وسواس النظافة، فقد كانت تغسل كل شيء في البيت من الأرضية وحتى الأسقف مروراً بالمقاعد والأبواب، وتمنع أي أحد من دخول البيت بالحذاء، وأن أي خادمة لم تكن لتصبر على هذه النظافة الزائدة لمدة طويلة.

٢ عوامل السن والجنس:

تزداد معدلات الإصابة لدى المراهقين والشباب، مثل نورة التي كانت في الثانوية العامة؛ أي في مرحلة المراهقة. ويصيب الوسواس القهري ثلثي المرضى في حوالي سن الـ٢٥ عاما، بينما

يصاب ٢٥٪ منهم قبل سن العاشرة و٥٪ بعد العقد الرابع من عمرهم. ومن الملاحظ أن المصابين بالوسواس القهري يطلبون المساعدة في وقت أبكر من أولئك المصابين بالأعراض الهيستيرية أو اضطرابات القلق.

٣ العوامل الاجتماعية النفسية:

وصف سيجموند فرويد ثلاث وسائل للدفاع النفسي تحدد الصفات الشخصية للمريض المصاب باضطراب الوسواس القهري ونوعية الأعراض التي يعاني منها، وهي ما تعرف بالعزل وإبطال المفعول وتكوين رد الفعل.

ا- العزل:

وهو وسيلة دفاعية تحمي الفرد من تأثير مسببات القلق. ويمر الأفراد في الحالات العادية ببعض الأفكار والمواقف الانفعالية المتراكمة التي لا تترك أثرا طويل الأمد. أما إذا حدث العزل فيتم فصل هذه الأفكار من الوعي، فلا يشعر الفرد بأي شعور سلبي من المواقف والأفكار التي كانت تسبب له ألما.

ب- إبطال الفعل:

يشمل الفعل القهري الظواهر السطحية لعملية الدفاع النفسي التي تهدف إلى تقليل حدة القلق وآثار الاندفاع التي لم ينجح العزل في السيطرة عليها. ولمواجهة احتمال فشل العزل كوسيلة دفاعية أولى، كان لا بد من الاعتماد على وسائل دفاعية ثانوية من أهمها إبطال الفعل. وترمز هذه الوسيلة إلى الفعل الإجباري الذي

يقوم به الفرد لتجنب الظروف التي تسبب له الأعراض أو إبطال مفعولها إذا لم يستطع تجنبها.

ج- تكوين رد الفعل:

يعتبر كل من العزل وإبطال الفعل وسائل دفاعية متعلقة بظهور الأعراض المرضية. ويتولد عن تكوين رد الفعل صفات أساسية لشخصية الإنسان تظهر عليه بدلا من الأعراض المرضية. وكما يدل اللفظ فإنه يشير إلى أنماط ظاهرية من السلوك والتصرفات التي تصدر عن الفرد بكامل الوعي على العكس من النزوات والدوافع الداخلية. وعادة ما تكون هذه الأشكال الظاهرية مبالغا فيها وقد لا تكون صحيحة أو مقبولة من وجهة نظر من يلاحظها.

٤ العوامل البيولوجية:

تؤكد الدراسات التي أجريت على مرض الوسواس القهري على علاقة العوامل البيولوجية كمسببات للوسواس القهري. وتشير هذه الدراسات إلى وجود تشابه بين الوسواس القهري والاكتئاب. فعدا عن تطابق بعض الأعراض في المرضين، أثبتت دراسات الهرمونات وتخطيط المخ والأشعة المقطعية أن أجزاء المخ المصابة هي واحدة في المرضين.

أعراض المرض ومميزاته:

توجد بعض العلامات والأعراض المميزة لمرضى الوسواس القهري أهمها

١ وجود فكرة معينة تسيطر على تفكير الفرد بإصرار مع وعيه التام بذلك.

٢ شعور بالخوف والقلق يصاحب الأعراض ويؤدي بالفرد إلى أخذ مقاييس مضادة لهذه الأفكار.

٣ يُعتبر الوسواس القهري دخيلا غريبا على الـ أنا ، أي أنه يُمارس على أنه تجربة جديدة على الكيان النفسي للفرد.

٤ على الرغم من وضوح الوسواس أو القهر، فإنه يبدو للمريض على أنه شيء ليس بذي معنى وبدون أي سبب منطقي.

٥ غالبا ما تكون لدى الإنسان المصاب بالوسواس او القهر رغبة قوية لمقاومتهما.

وتوجد هناك أربعة نماذج لأعراض هذا الاضطراب:

١ الوسواس من التلوث فيلجأ الفرد لتكرار الاغتسال والتطهر. وعادة ما يكون الشيء الذي يخشاه الفرد صعب التحاشي مثل البول والبراز، فيكون الفعل الإجباري متمثلا في الغسيل والنظافة. **وهذا النموذج هو نفسه الذي أصيبت به نورة، فكانت دائمة التشكيك في نظافتها، مما كان يؤدي بها إلى إعادة الاغتسال والوضوء باستمرار.**

٢ وسواس الشك المصحوب بالتفقد. وعادة ما يكون الوسواس في هذا النوع خوفا من الخطر، فيشعر المريض بالذنب دائما وكأنه

قد نسي شيئا أو ارتكب خطأ. ويأتي هذا السلوك القهري على هيئة تجنب وتكرار وحذر ومحاولة بلوغ الكمال في التصرفات والأفعال.

٣ الأفكار الوسواسية غير المصحوبة بالفعل الإجباري، ويتمثل ذلك في التفكير المتكرر بأمور لا يجرؤ المريض في العادة على قبولها كالتشكيك بوجود الله أو الالتزام بالمناسك الدينية المختلفة أو التلفظ بكلمات نابية.

٤ تباطؤ الوسواس بحيث يظهر كل من الوسواس والفعل الإجباري متحدين كنمط سلوكي يومي بطيء، كأن يستغرق الفرد ساعات كي يأكل وجبة أو ليحلق.

وقد اتضح أن حوالي ٥٠٪ من مرضى الوسواس القهري مصابون بالاكتئاب أو أعراض تعكر المزاج.

سير المرض:

يصاب حوالي ٥٠٪ من المرضى بالوسواس القهري قبل سن ٢٤ عاما، وما يزيد عن ٨٠٪ قبل سن ٣٥ عاما. أي أن متوسط معدل الإصابة هو ٢٠ عاما. ويصاب حوالي ٥٠-٧٥٪ من المرضى بعد المرور بحدث يمثّل ضغطا نفسيا كالحمل أو المشاكل الجنسية أو وفاة أحد الأقرباء. **وبالرغم من أن ما تعرضت له نورة يختلف تماماً عن الأحداث التي ذكرت أعلاه، إلا إنها تركت نفس الأثر في نفسها. تعرضت نورة لحادثتين في فترتين متباعدتين. الحادثة الأولى عندما انتقل القمل إلى رأسها من زميلة لها كانت تشاركها نفس**

المقد في المدرسة. عندها تعاملت والدتها مع هذه الحادثة بطريقة غاية في الصرامة، فجعلتها كوصمة العار في حياة ابنتها وقامت بحرق ملابسها المدرسية، وبقص شعرها وتخضيبه بالكيروسين وتمشيطه بالمشط الحديدي. أما الحادثة الثانية فكانت عندما صادفت، وهي في طريقها إلى المدرسة، ذلك الرجل المصاب بالمرض الجلدي الذي أمسك بعباءتها. فمنذ ذلك الوقت، بدأ ظهور خوفها من أن الرجل قد نقل لها عدوى المرض. ويدل هذا على بداية أعراض الوسواس القهري لدى نورة، ومنها الشك المصحوب بالتفقد خوفا من الخطر، وتكرار الأفعال. فقد كانت نورة تغسل عباءتها وملابسها مرات متعددة حرصاً على نظافتها وخوفاً من انتقال العدوى إليها. وكانت تكرر وضوءها وصلاتها عدة مرات.

وتتفاوت حدة الأعراض لدى بعض المرضى، بينما تبقى ثابتة عند البعض الآخر. وقد يحاول كثير من المرضى إخفاء معاناتهم مما يؤدي إلى تأخرهم في طلب الاستشارة وتلقي العلاج لما يقارب ٥-١٠ سنوات. ويبلغ متوسط عمر المريض الذي يدخل المستشفى لأول مرة ٣٠ عاما، وعادة ما تكون الأعراض حادة والحالة متأزمة.

أما بالنسبة للأعراض، فإن الإحصائيات تدل على أن أعراض حوالي ٢٠-٣٠٪ من المرضى تتحسن بصورة ملحوظة وحوالي ٤٠٪ ٥٠٪ بدرجة متوسطة بينما يبقى حوالي ٢٠٪ ٤٠٪ بدون أي تحسن في أعراضهم، بل أنها قد تزداد سوءا عما كانت عليه. ويعاني ثلثا مرضى هذه الفئة الأخيرة من اكتئاب شديد وترتفع نسبة احتمال الإقدام على الانتحار لديهم. كما تشير هذه الدراسات إلى أن هناك زيادة بسيطة في احتمال إصابة مرضى هذه الفئة بالفصام.

العـــلاج:

١ العلاج بالأدوية:

يستخدم بعض الأطباء الأدوية لوحدها لعلاج الوسواس القهري، بينما يصفها البعض الآخر لاستخدامها إلى جانب العلاج النفسي أو السلوكي. ويعتبر الأنافرانيل الدواء المعياري الذي يصفه معظم الأطباء لعلاج هذا الاضطراب. ويصنف هذا الدواء كمضاد للاكتئاب من المجموعة التي تضم التريبتيزول والتوفرانيل، وله جميع التأثيرات الجانبية التي لهذه المجموعة من الأدوية.

وتوجد أدوية أخرى تستخدم لعلاج هذا المرض وتشمل أنواعا أخرى من مضادات الاكتئاب والقلق. ومن أهم هذه الأدوية ما يلي:

- بارنيت.
- نارديل.
- بروزاك.
- زاناكس .
- ترازودون.

وقد يتأخر مفعول الدواء لعدة أسابيع بعد البدء في تعاطيه، إلا أنه يجب الاستمرار في أخذه لمدة لا تقل عن ٦-١٢ شهرا لضمان

عدم انتكاس حالة المريض ومعاودة الأعراض. وعادة ما يكون العلاج الدوائي ناجعا أكثر في علاج السلوك القهري من الأفكار الوسواسية.

٢ العلاج النفسي:

للتأهيل والمساندة النفسية دور كبير وتأثير فعال على المريض خاصة إذا كان مرتبطا بأعمال وعلاقات اجتماعية معينة، حيث يمثل تشجيع ومساندة الطبيب أو الأخصائي له دافعا كبيرا لمواصلته لأعماله ومساعدته على التأقلم مع الأفراد المحيطين به والظروف التي تمر به مما يعينه على عدم الاستسلام للمرض والوقوع أسيرا له.

وتلعب العائلة دورا كبيرا في هذا النوع العلاجي، ولهذا يجب أخذ أفرادها بعين الاعتبار أثناء وضع الخطة العلاجية لكي يقوموا بتقديم المساندة النفسية والعاطفية للمريض وتقديم النصيحة له وتعليمه كيفية التعامل مع المرض. ويساعد العلاج العائلي على التخفيف من الاضطرابات والمشاكل العائلية التي قد تنجم عن المرض وسلوك المريض الذي تفرضه عليه حالته وأعراضه.

وغالبا ما يستطيع المريض التغلب على أعراضه بتلقي العلاج في العيادة الخارجية. إلا أن الأعراض قد تتطور لدى بعض المرضى لدرجة لا يستطيعون تحملها، مما يستدعي إدخالهم إلى المستشفى لتلقي العلاج.

٣ العلاج السلوكي:

يعتبر العلاج السلوكي من أهم الطرق العلاجية لمرض الوسواس القهري حيث يتم تطبيقه على حوالي ٦٠٪ ٧٥٪ من المرضى. ومن وسائل العلاج السلوكي المتبعة في علاج المرضى إزالة الحساسية ووقف التفكير وتجنب رد الفعل. ولكي تعطي أي من هذه الوسائل نتائجها يجب أن يكون المريض مقتنعاً بالعلاج ويبذل أقصى جهده للتعاون مع الفريق المعالج ويتبع جميع الارشادات وخطوات العلاج المختلفة.

٤ العلاج الجراحي:

عدد قليل من المرضى قد لا يستفيد من العلاجات السابقة. وإذا ما كانت الأعراض حادة وغير محتملة، فقد يستفيد بعضهم من إجراء عملية جراحية دقيقة على منطقة معينة في المخ تؤدي إلى تلاشي الأعراض. إلا أن الخيار الجراحي يكون الملجأ الأخير، وهو يخضع لشروط صارمة يجب أن تنطبق على المريض منها على سبيل المثال التأكد بصورة قاطعة بأن المريض لم يستجب لأي من وسائل العلاج المتاحة.

الفصل السادس

إحتوت الفصول السابقة لهذا الكتاب على تعريف بعدد من الأمراض النفسية وأمثلة لأناس أصيبوا بها. وكان الهدف أن تستفيد، عزيزنا القارىء، بتعرفك على هذه الأمراض وسيرتها الطبيعية، فلربما سنحت لك الفرصة في المستقبل أن تمد يد العون لمريض وضعته الأقدار في طريقك بعد أن شاء حظه أن يصاب بأحد هذه الأمراض، فتعينه على التغلب عليه والرجوع إلى مجتمعه ليواصل دوره في بنائه وتنميته.

ويشتمل هذا الفصل من الكتاب على مجموعة من السير المرضية لأشخاص آخرين أصيبوا ببعض هذه الأمراض النفسية، نترك لك تحليل حالاتهم وتشخيصها في ضوء ما قرأته في الفصول السابقة.

(١)

غد مجهول

إنطلقت سيارة الإسعاف تمخر عباب الشوارع بصفارتها التي تصيب بقية سائقي السيارات برجفة هلع مفاجئ، فيتسابقون بإفساح الطريق لها وعيونهم معلقة بالنافذة الصغيرة علهم يقتنصون نظرة أو مشهدا يغذي خيالهم بقصة مأساوية حزينة يعودون بها لأهل بيتهم وصحبهم.

ووصلت عربة الإسعاف إلى شارع ضيق متفرع من الشارع الرئيسي ووقفت بفرملة سريعة أمام أحد البيوت. واندفع ممرضان بلباسهما الأبيض نحو مدخل ذلك المنزل، وما هي إلا بضع دقائق حتى عادا يحملان جسدا مسجى على حمالة خضراء وأنابيب متصلة بذراع مخضبة بالدم.

وانهمرت نظرات الاستطلاع من كل حدب وصوب وتعالى اللغط والتساؤل من النوافذ المشرعة والعيون المبثوثة على كل شرفة وباب. واندفع من داخل البيت شاب في مقتبل العمر مشعث

الشعر، زائغ النظرات، رمق بغضب وغيظ العيون المنتشرة حوله يود لو يفقأ الشماتة في نظراتها، يود لو يقطع اللغط المزروع على الألسن كالوباء بصراخ غاضب مجنون يعصف بقلبه وكيانه.. فنكس نظراته الملتهبة واندفع نحو سيارة انطلقت به كزوبعة عاصفة.

ضرب أحد المتجمهرين حول باب المنزل كفا بكف وهو يقول بصوت استعراضي:

- يا حسرة على الرجال، إن لم يقتله الهم والغم والمرض، قتله عقوق الأبناء والأخوة.

وقال آخر:

- إن كان عقوق الأبناء ما قتله، فكم من ميت بيننا يعيش دون قلب ينبض بالحياة؟

وصرخت عجوز كانت تقف بباب منزلها القريب:

- إن الرحمة تجوز على الميت والحي، وعمر المرء بيد الواحد الأحد... فإن كان للرجل عمر في صحيفته فسوف يعيش كما حدث في المرة السابقة.

وتدافعت الأرجل والألسن نحو العجوز تحثها على الحديث:

- ماذا؟ ماذا حدث في المرة السابقة..؟

- محاولة انتحار، (قالها شيخ يقف مع الجماعة) يسكن الروح الجسد ويزهقها بميعاد... وإغضاب الباري، مهما كانت الأسباب، كفر وجريمة.

وتعالت أصوات... برز صوت أحدهم يكلم الشيخ بقوله:

- دعنا نسمع القصة أيها الشيخ، فكلنا يعرف أن الانتحار كفر يغضب الله.

وجلست العجوز على كرسي صغير والجموع تتحلق حولها متلهفة لسماع المزيد من التفاصيل. واشتدت عزيمة العجوز أم محمد وهي تستمتع بأهميتها وتتلذذ بالنظرات المتلهفة لسماعها وقالت:

- أجل، لقد حاول أبو أحمد الانتحار في مرة سابقة، لكنه كان أكثر شبابا وقوة، وجاءت محاولته تلك بعد ظروف مشابهة لظروف اليوم وأحداثه... أذكر ذلك جيدا وكأنها حدثت بالأمس. فقد خرجت زوجته وعلى كتفها وليدها إلى بيت أبيها دون رجعة وبعد أيام نقلته سيارة الاسعاف إلى المستشفى بعد أن قطع شرايين معصمه، لكن لطف الله أنقذه.

قال أحدهم: إنها المرأة إذا، فكل مصائب الرجال مصدرها المرأة. لقد أحالت حياة المسكين إلى جحيم حتى تمنى الخلاص بالانتحار.

ودفعته العجوز بيدها المعروقة وهي تمط شفتيها وتضرب كفا

بكف قائلة:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، البيوت أسرار يا بني، وخلف تلك الأبواب المغلقة أسرار متفرقة، وأنا امرأة أخاف الله وأخشى الخوض في سير الناس وأخلاقهم، ولكن كلمة الحق تقال. فأم أحمد امرأة فاضلة تخاف الله في زوجها وفي بيتها، لكن أبا أحمد -عافاه الله- رجل صعب، عصبي المزاج والسلوك حتى ابتعد عنه الجار القريب والبعيد. فكم من المشاكل افتعل لأتفه الأسباب حتى عافه القريب والبعيد والأهل والأقارب.

قال الشيخ: صدقت يا خالة، فللرجل أطوار غريبة ومزاج متقلب لا يستقر على حال، فمرة يبش ويحتضن وأخرى يمر بك وكأنه لا يعرفك وأنت جار أو قريب، حتى بتنا نتحاشى لقاءه ولو صدفة، يعيش في عالم يحتويه وحده، لا يربطنا به إلا دين واحد.

وأطلت في تلك اللحظة سيارة للشرطة تتقدم بحذر في الشارع الضيق المزدحم، وما إن وصلت أمام بيت العجوز حتى كان الجمع قد تفرق، كل في طريقه...

دخل رجل في العقد الرابع من عمره مهرولا نحو مكتب الاستعلامات في قسم الطوارئ بالمستشفى، ثم عاد جريا نحو الباب الخارجي وعيناه تتابعان السيارات القادمة في لهفة وارتباك، ثم أخذ يسير ذهابا وإيابا بعصبية واضحة وهو يتمتم بكلمات مبهمة كأنه يحدث نفسه... فجأة تسمّر الرجل في مكانه، وجحظت عيناه باتجاه واحد وهو يسمع صفارة سيارة الاسعاف تقترب رويدا رويدا ومعها تتسارع دقات قلبه ضجيجا.. وجرى الرجل تسبقه لهفته نحو سيارة الإسعاف، فدفعه السائق وهو

يسرع بفتح الباب الخلفي... وأنزل الممرضان الحمالة والرجل المسجى عليها بحذر شديد، واندفع الرجل نحو الجسد المسجى يبكي بحرقة وألم وهو يكرر: "ما الذي فعلته بنفسك؟ لقد قتلتني وقتلت نفسك"! وأبعده أحد الممرضين وهو يصرخ في وجهه: "ابتعد يا هذا، فالرجل في الرمق الأخير، وعمره الباقي محسوب بالدقائق، وأنت تولول كالنساء...إبتعد.."

وجرى الرجل خلفهما وهو يصرخ قائلا

- إنه أخي... شقيقي الوحيد... فمن حقي وحقه أن أكون بجانبه إن كتب الله له النجاة أو الممات.

وخفّض الممرض من لهجته وهو يقول معتذرا:

- إتبعني ولا تضيّع وقتا... إتبعني...

وشعر الرجل بذراع قوية تحتوي كتفيه... فتطلّع خلفه والدموع تملأ وجهه، ثم أجهش بالبكاء من جديد وهو يتعلّق بذراع الشاب ويقول وقد اختلطت العبارات بنبرات البكاء:

- أرأيت يا أحمد ماذا فعل أبوك؟.. لقد أصبح الانتحار عنده لعبة كلعنة اليأس والعذاب، ولو انتحر جميع اليائسين والبائسين لما بقى على وجه البسيطة رجل واحد.

- أحمد هوّن عليك يا عم عبدالله... فقد طمأنني الممرضان في البيت بأن هناك أملاً كبيرا في إنقاذه، والأمل بالله وحده.

- عبدالله: ولماذا كل هذا العذاب له ولنا جميعا؟ هب أنك لم تكن في البيت وقت الحادث. هب أن جهاز الهاتف تعطل لسبب أو آخر، ولم تستطع تبليغ المستشفى والشرطة بالسرعة المطلوبة...هب أن...

وقاطعه أحمد قائلا: الأعمار بيد الله... فإن كان له بقية من عمر فسيعيشه...

ووصل الرجلان إلى غرفة الانعاش حيث أدخل المريض...

وجلس عبدالله على كرسي في الصالة بتثاقل وكأنه يحمل هموم العالم على كاهله فاقترب أحمد منه قائلا:

- أتريد أن أحضر لك كوبا من الماء؟

- بل أعطني علبة سجائرك.

وأشعل عبدالله سيجارة وأخذ منها نفسا طويلا تلاها بزفير، وكأنه يُخرج بها من صدره آهات تراكمت كالصخور الصلبة وقال لأحمد:

- هل أخبرت والدتك بما جرى..؟

- أحمد: فكّرت في ذلك بعد أن اتصلت بك.. لكنني أرجأت الأمر حتى نطمئن على الوالد.

- عبدالله: حسنا فعلت... لا داعي بأن تخبر والدتك الآن، يكفي أن يعلم جدك بالأمر فقط... ثم أردف بعد تفكير وجيز:

لا تنس أن تخبر الدكتور خليل، يجب أن يعلم بما جرى فهو طبيبه.

- أحمد: لا أرى داعيا للاتصال به الآن، حتى نطمئن...

وفتح باب العيادة فجأة وخرج أحد الأطباء وقد بدا عليه التعب والاعياء، وتطلع من خلف نظارته باتجاه العيون الجاحظة نحوه... فهبّ عبدالله وخلفه أحمد نحو الطبيب الذي بادرهما بقوله:

- أنتما من أهله..؟

- أحمد: أنا أحمد... ابنه وهذا عمي وشقيقه، طمئنّا يا دكتور أرجوك...

- الطبيب: لقد كتب الله له النجاة، ولكن نبض القلب ما زال منخفضا نتيجة لما نزف من الدماء بالإضافة إلى ضعف المقاومة عنده لأسباب عدة؛ ولهذا سيبقى في غرفة العناية المركزة حتى يزول الخطر تماما.

وسأل عبدالله في لهفة:

- هل نستطيع رؤيته..؟

- الطبيب: لا فائدة من رؤيته الآن، فهو في غيبوبة تامة.
ثم نظر الطبيب إلى عبدالله وقال له بلطف:

- يمكنك الذهاب لترتاح قليلا، فلا فائدة من بقائك هنا... أما أنت يا أحمد، فأرجو أن تأتي معي إلى المكتب، إذ يلزمني بعض المعلومات عن والدك لملء استمارتي المستشفى والشرطة.

- عبدالله: إن أردت أن تعرف كل شيء عن تفاصيل حياة أخي، فأنا أدرى بها من أحمد...

- الطبيب: سأعرف جميع التفاصيل من أحمد، فهو ابنه ولا بد أنه ملم بأمر والده وبصحته. وإن لزم الأمر للمزيد، استدعيتك من بيتك عند الحاجة لذلك.

- عبدالله: سأبقى هنا حتى يصحو أخي من غيبوبته... هل في ذلك خرق لأي قانون؟ ثم نظر إلى أحمد قائلا:

- لا تنس أن تخبره عن الدكتور خليل.

وأمسك الطبيب بذراع أحمد وسار باتجاه المكتب وسأله بشكل عرضي:

- من يقصد عمك بالدكتور خليل؟

- أحمد: الدكتور خليل سعيد.

- الطبيب: أخصائي الأمراض النفسية..؟

- أحمد: أجل يا دكتور.. فقد عالج الدكتور خليل والدي، وقد يستطيع وصف حالة أبي الخاصة أكثر مني...

الطبيب: مفهوم... مفهوم...

ودخل الطبيب ومن خلفه أحمد إلى عيادته الخاصة، وتناول بعض الأوراق من درج المكتب، ثم جلس ووضع نظارتيه على المكتب أمامه، وقال لأحمد الجالس على كرسي أمامه بتودد ولطف:

- أريدك يا بني أن تخبرني عن حياتك وحياة والدك، عن ماضيه، أمراضه العضوية والنفسية وعن حالته الاجتماعية... تكلم يا بني وثق بأن أسرار عائلتك وأسرار والدك الخاصة ستبقى بيني وبينك، فشرف المهنة يحتم علينا المحافظة على أسرار مرضانا...

جلس عبدالله على مقعد في الصالة المجاورة لعيادة العناية المركزة، وعيناه مسمرتان على باب العيادة، كأنه ينتظر أن يفتح شقيقه إبراهيم الباب كي يهرع إليه يحتضنه ويذرف الدموع على كتفيه.. وفتح باب العيادة فجأة وخرجت ممرضة بلباسها الأبيض، فتسارعت نظرات عبدالله تلاحقها بالتساؤل، لكنها غضت ببصرها وتجاهلته تماما وسارت في طريقها بخطى هادئة حتى غابت عن ناظريه. وامتدت يده إلى جيبه وأخرج علبة سجائره، ثم تناول منفضة ومجلة قديمة عن طاولة في وسط الصالة وعاد إلى مقعده أشعل سيجارة وجال ببصره في الصالة حتى وقع بصره على وجه

رجل كان يجلس على كرسيّ منزو، وتعلقت عيناه في وجه ذلك الرجل، فوجهه نسخة حية لصورة والده المعلقة في صدر الغرفة في بيته وبيت شقيقه إبراهيم.. نفس الشاربين الدقيقين... ونفس النظرة الحزينة المتحجرة في قاع القلب والعين... وأحس عبدالله بالإحراج والخجل ونظرات العجوز الثاقبة تتساءل بقسوة... فأخفض بصره نحو المجلة التي ربضت بين يديه، يقلّب صفحاتها دون أن يلتقط أي كلمة أو حرف.

وسرح عبدالله بفكره بعيدا، بعيدا... وتراءى له وجه أمه الشاحب النحيل وبكاؤها المتواصل ليل نهار، وكطفل غرير لا يفقه من أمر الحياة شيئا كان يعجب من حزن والدته وبكائها، واتشاحها بالسواد بالرغم من مرور أكثر من عامين على وفاة والده. فقلب الطفولة لا يعرف تراكم الحزن والألم وحياة الطفولة تفرض النسيان في خضم اللهو واللعب. كما أنه لم يعرف حب الأبوة وحنانها فهو لا يذكر والده إلا مريضا طريح الفراش والسعال الحاد المتواصل يلتهم جسده وعافيته يوما بعد يوم...

وامتدت أنامله خفية كي تمسح دموعا ملأت عينيه وحجبت عنه رؤية أي شيء أمامه، وسقطت المجلة الرابضة بين يديه فانحنى لالتقاطها واتجه ببصره إلى الباب الموصد حيث يرقد شقيقه، ثم جال ببصره في الصالة والممرات الطويلة في المستشفى وكأنه ينتظر قدوم أحد، وقال يحدث نفسه: "كم من الوقت مضى وأنا لا أعي شيئا مما يدور حولي، أما زال أحمد عند الطبيب أم أنه في الداخل عند إبراهيم؟" وقام مسرعا نحو باب العيادة ومد يده كي يفتح الباب وإذا بأحد الأطباء يستوقفه مؤنبا:

- ماذا تريد يا هذا؟ وكيف تجرؤ على الدخول إلى غرف المستشفى

دون إذن أو طلب من أحد؟
وانبرت ممرضة كانت بصحبته قائلة:

- إنه شقيق المريض...

ثم نظرت إلى عبدالله نظرة عتاب حنونة وأردفت قائلة

- أما زلت هنا؟ لقد قال لك الطبيب بأن تذهب كي تستريح قليلا، ولن يسمح لك أحد بزيارة شقيقك حتى يأذن طبيبه بذلك، فالأفضل أن تذهب وتستريح في بيتك.

وتركته حيث يقف وتابعت حديثها مع الطبيب، وعبدالله يتابع خطواتهما وضحكاتهما الخافتة حتى غابا عن ناظريه. قال يحدث نفسه: ما أشد قسوة قلبك أيها الإنسان، إن شقيقي بين الموت والحياة وهما في عالم آخر بعيد عن عالم المستشفى ومآسيها. أهي القسوة أم التعود على رؤية مآسي المرضى وآلامهم؟ يموت هذا ويشفى ذاك، رقم يضاف أو يشطب من لائحة الأسماء

وعاد عبدالله إلى مقعده وقد أخذ الارهاق منه مأخذه، وأشعل سيجارة ما إن أخذ منها أنفاسا متلاحقة حتى أشعلت حريقا في صدره... فأسرع إلى إخمادها في المنفضة أمامه ومسح بكفه دموعا أثارتها سحب الدخان والترقب، وقال لنفسه بصوت هامس: أشعر بدوار وصداع يبدو على وجهي واضحا حتى أصرت الممرضة علي بالحاح كي أذهب وأستريح... إنني أشعر بحنين إلى الراحة وكأنني لم أر فراشا لأيام وليال... الأفضل أن أعود إلى البيت وسأعرف بما يحدث من جديد من أحمد حين يعود "وقف عبدالله

وهمّ بالذهاب، ثم عاد إلى مقعده وهو متردد بين الذهاب والبقاء، ونظر إلى باب العيادة، ثم جلس فجأة وهو يكمل حديثه لنفسه وأترك إبراهيم وحده... لا... فلا يجد حوله حين يعود من رحلة الموت سوى وجوه غريبة صماء تحيطه بنظرات التقريع واللوم، فجسدي لن يعرف الراحة وإبراهيم يصارع الموت وحده".

وأراح عبدالله رأسه على المقعد خلفه وأغمض عينيه وكأنه في سبات عميق، بينما ذهب بمخيلته يتذكر ويستعرض أحداثا وصورا توالت على مر السنين، صورا وأحداثا لا ترابط زمنيا بها ولا صلة. وامتدت يده فجأة تتحسس خده الأيمن وآلام الصفعة تحرق وجهه، وهو منكب على فراش أمه والنسوة من حوله يبكين حين أمسكه إبراهيم بقسوة... وهوت كفه على وجهه الصغير كالصاعقة وهو يصرخ:

- كف عن العويل كالنساء، فأنت رجل، والرجال لا يبكون، أتفهم الرجال لا يبكون..

وكفكفت دموعي... وتعلمت كيف أمضغ الحزن في قلبي الصغير يوما بعد يوم كي لا أثير غضب إبراهيم وثورته.. ومرت أيام الحزن الأولى وانفض القوم حولنا ولم يبق من يشاركنا الحزن سوى خالي سعيد وأفراد عائلته الذي حاول مرارا اصطحابي للعيش عنده بين أبنائه لكي يجنب إبراهيم مسؤولية رعايتي والعناية بي.

وتوالت الذكريات في مخيلة عبدالله صورا تمضي كشهور وسنوات عمره، وفجأة اهتز جسده بقوة حتى سقطت المجلة من على ركبتيه، ففتح عينيه وجحظ ببصره عبر حوائط المستشفى

وجدرانه، والصور شاخصة أمام عينيه بأحداثها وتفاصيلها كأنها تعيده مجددا إلى تلك الأيام وأحداثها... عدت إلى البيت بعد المدرسة وكعادتي كل يوم ذهبت إلى الحمام كي أغتسل وأبدل ثيابي قبل الجلوس في غرفتي، فوجدت إبراهيم قد سبقني إليه فاختصرت الطريق إلى الحمام الصغير المعد للضيوف لعلمي بشغفه بالوقت الذي يمضيه في الحمام اغتسالا أو وضوءا... ومضت ساعة وأخرى وإبراهيم ما زال في الحمام يغتسل... فناديته من خلف الباب مرة ثم اثنتين، فلم يجب... فاستجمعت قوتي ودفعت الباب ودخلت... وللحظة كدت أهوي على الأرض من هول ما رأيت... فقد رأيت إبراهيم يجلس شبه عار في إحدى زوايا الحمام العائم بالماء وجسده يهتز ببكاء صامت كجسد فأر مذعور... فهرعت إليه بفوطة أحيط بها جسده الذي كان ينتفض وكأن مسا من كهرباء قد أصابه... فنظر إليّ بنظرات غريبة أخافتني وهزت أعماقي، ثم وقف ودفعني بقوة بعيدا عنه وانهال علي ضربا وهو يصرخ مولولا:

- قتلتها أيها الجبان... قتلت أمك المسكينة، قتلت زوجتك كما قتلتك... تريد أن تجهز عليّ أنا أيضا أيها الجبان، ابتعد... ابتعد...

وهرولت خارج البيت مسرعا أجري على غير هدى حتى وصلت إلى بيت خالي...

ومضت أشهر السعادة مسرعة ككل شيء جميل، وعرفت في بيت خالي معنى الحياة الأسرية السعيدة حتى نسيت أو تناسيت عذاب طفولتي ويتمي. وكان إبراهيم خلال تلك الفترة سعيدا بالترتيب

الجديد وكأنه تخلص من عبء كان لا يقوى على تحمله وحده، يغدق عليّ الكثير من عطائه بالإضافة إلى بعض حبه وحنانه... وفي ذات يوم وعند عودتي من المدرسة وجدت إبراهيم يجلس مع خالي وعائلته كعادته كل مساء، فأخذني جانبا وقال والبشر يملأ وجهه:

- لقد وافق خالك وحققت له ولوالدتنا المتوفاة أمنيتها بالزواج من هيفاء. فلن يطول بقاؤك هنا، بل تعود إلى بيتك يجمعنا بيت وسقف واحد.

وفتح عبدالله عينيه ونظر حوله محاولا أن يرى في العيون العابرة أثرا لما كان يدور في خلده من ذكريات وصور، وتأكد أن الناس حوله تعيش في عالم، بينما يعيش هو في عالم آخر يخصّه وحده، وسرح ببصره نحو باب العيادة المقفل حيث يرقد شقيقه المسجى على الفراش بين الموت والحياة، ولاحت أمامه صورة هيفاء مجسمة كبيرة بحجم باب العيادة الابيض.

كانت هيفاء كبرى أبناء خاله وبناته، فتاة مرهفة الحس خجولة، تعلو وجهها الطفولي العادي الملامح ابتسامة عفوية صادقة تنضح بالحنان والحب تكسبه جمالا كأنه إطلالة الشمس في يوم غائم مظلم. كانت هيفاء لا تألو جهدا برعاية عبدالله والعناية به. هو يعيش بينهم كي تعوضه برعايتها وحنانها قسوة الزمن والأيام عليه، حتى تعلق قلب الصغير بها بحب من افتقد حب الأمومة وحنانها.

والتأم شمل الأخوة وعاد عبدالله للعيش تحت كنف شقيقه وزوجته، ومرت أشهر الزواج الأولى في هناء وسعادة أعادت للفتى الذي أصبح على أعتاب الشباب الشعور بالأمان، مما دفعه لبذل

المزيد من المواظبة على دروسه. وكانت هيفاء تبذل الكثير دون تذمر أو شكوى وابتسامتها الحانية تعلو وجهها لتعيد للبيت الذي عرف المآسي بعض السعادة والاستقرار.

واستحوذت الدراسة وصحبة الأصدقاء على حياة عبدالله وجل وقته حتى شغلته عن ملاحظة أمور تراءت له بأنها طبيعية تحدث بين كل زوجين وفي كل الأسر، كان يسمع صراخ أخيه ينبعث من غرفته فيهرع هو إلى غرفة نومه، يغلق الباب خلفه كي يترك للزوجين الحرية الكاملة في حل المشاكل بينهما... فكل الأزواج يتصايحون ويتناقشون وما عليه إلا التظاهر بالصمم الكامل، وقد زاد يقينه بصواب تصرفه بعد رؤية أخيه مرة بعد أخرى وقد جلس بعد حفلة الصراخ والصياح هادئا ساكنا في كرسيه في صالة البيت يقرأ كتابا أو جريدة، وكأن لا دخل له بما حدث قبل ذلك بثوان قليلة. وكان كلما تكرر النقاش والصراخ من إبراهيم زادت هيفاء من بذلها وعطائها وابتسامة وجهها المشرقة تأفل رويدا رويدا، مما أثار التساؤل في عقل عبدالله وقلبه خوفا على صحة هيفاء وجزعا على سعادة الأسرة من التصدع والانهيار.

ومد عبدالله يده إلى جيبه يبحث عن علبة ثقاب كي يشعل السيجارة المعلقة بين شفتيه، وتذكر بوضوح ذلك اليوم وتلك الواقعة التي تركت بصماتها على علاقاته المستقبلية بأخيه وزوجته. ففي ذلك الصباح تعمد عبدالله أن يبقى في البيت حتى يخرج إبراهيم إلى عمله بعد أن قرر أن يستفهم من هيفاء عن سبب صراخ أخيه وعراكهما الدائم.

وهرعت هيفاء إليه وعلى وجهها ابتسامة حانية كي تستطلع سبب بقائه في البيت وتطمئن على صحته. فنهض متثاقلا

متمارضا وجلس في الصالة يشرب كوبا من الليمون أعدته له وهو صامت يتوجس خيفة من الخوض في حياة شقيقه الخاصة... لكن حبه لهيفاء وجزعه عليها كان دافعه الأقوى...

قال بحذر كمن يسير على زجاج مكسور: أشعر أنك تخفين عني أمورا هامة قد أستطيع المساعدة في معالجتها، أراك تتألمين وحدك وتخفين آلامك في صدرك حتى تلاشت ابتسامة السعادة عن وجهك، فأنت شقيقتي وسعادتك تهمني كسعادة إبراهيم أخي... تكلمي ولا تثقلي بالهم على قلبك وحدك...

ابتسمت هيفاء بخجل لتداري دمعتين تسربتا برفق على خدها وقالت:

- ألا يكفيك يا أخي هموم الدراسة ومشاكلها حتى أصدع رأسك بمشاكل جانبية تحصل في كل البيوت، فليس في الأمر ما لا أستطيع معالجته بنفسي حتى الآن، وثق بأنني لن أجد خيرا منك ألجأ إليه بمشاكلي عند الحاجة.

وشعر عبدالله بهوة تفصل بينه وبين هيفاء تحولت بلحظة إلى أميال عديدة، قال وكأنه يفضح مراوغتها وتكتمها:

- إن كان وجودي بينكما عثرة ودافعا للخلاف والاختلاف فإنني مستعد أن...

ولم تتركه هيفاء يكمل جملته، فنهضت ومدت كفّها نحو فمه كي

تسكته قائلة:

- عبدالله لا تقل شيئا أرجوك.. فهذا بيتك كما هو بيت إبراهيم، فأنت تعرف معزتك في قلبي... إنك شقيقي وصديقي والبلسم الذي يداوي بعض جروحي، فلا تتركني وحدي لقسوة الحياة وآلامها.

وانبرى عبدالله قائلا وهو حائر بين عميق حزنها وتكتمها:

- لا تخافي...لن أتركك وحدك أبدا... وحرصا على سعادتكما أؤكد لك بأنني لن أحشر نفسي بعد اليوم في أمور حياتكما الشخصية، ولم أقصد هذا أبدا لكنني أشفقت على سعادة رفرفت في سماء أسرتنا من أن تلبدها غيوم وعواصف.

وشعرت هيفاء بصدق كلماته وعواطفه فتقدمت وربتت على كتفه وكأنها تداوي جرحه بابتسامتها الحنونة وقالت بخجل وتردد

- قريبا وبعد أشهر معدودة تعود السعادة كي تملأ البيت بقدوم طفل، وتصبح أنت عماً لأجمل طفل في الوجود...

قال عبدالله بلهفة:

- أنت إذا حامل وإبراهيم أخي سيصير أبا..؟ مبروك.

هزت هيفاء رأسها إيجابا وأردفت قائلة:

- ربما عرفت الآن سبب هزالي وتعكر صفو مزاجي...

وعلق عبدالله بسخرية بريئة:

- ومزاج إبراهيم أيضا..؟

ومرت أشهر الحمل بطيئة وبطن هيفاء يزداد انتفاخا كلما ازداد صراخ إبراهيم عصبية وحدة، وعزف عبدالله عن السؤال أو التساؤل وبرر تلك التصرفات الشاذة لحالة الترقب والقلق التي يعيشها الأزواج قبل استقبال مولودهما الأول، وقرّر وامتحانات الثانوية على الأبواب، أن ينتقل للعيش عند خاله لكي يتفرغ للدراسة في جو هادئ بعيدا عن جو المشاحنات والقلق، ولكي يهرب من توبيخ شقيقه وتقريعه في كل مناسبة ووقت. وكان عبدالله يذهب بين الحين والآخر ليطمئن على إبراهيم وزوجته أو كي يحضر بعض الثياب والكتب، فيجد شقيقه مستلقيا على كرسي أو سرير شارد الذهن والحضور، أو في الحمام يتوضأ أو يغتسل، فينسل من البيت بهدوء ونظرات هيفاء العاتبة تلاحقه في توسل صامت.

وعاد عبدالله إلى بيته ثانية وقلبه يرقص بفرحتين، فرحته الخاصة بأحمد الصغير وفرحة نجاحه بالثانوية العامة. ولاحظ في ليلة عودته أن شقيقه أصبح ينام في غرفة الضيوف في المنزل ليوفر للوالدة والمولود الراحة وليبتعد طلبا للنوم عن صراخ الطفل الذي لا يكف طوال الليل. ومر شهر ثانٍ وثالث وآخر، وإبراهيم سعيد باستقلاليته ووحدته، وكأنه توصلٍ بوضعه الجديد إلى حل النزاعات والصراعات التي تتجاذبه، بل أصبح أكثر اهتماما بشؤون عمله ورعاية طفله، وعادت تلك الابتسامة الجميلة

لتنير وجه هيفاء الهزيل وكأنها تخلصت من عبء يثقلها، وارتضت من الحياة قانعة برعاية بيتها وطفلها.

وقف عبدالله فجأة وكأن سوطا وقع على أم رأسه واتجهت عيناه نحو باب العيادة المغلق، ثم أخذ يسير ذهابا وإيابا والغضب يتفجر من وجهه حين تذكر تلك الواقعة التي أخرجته من البيت إلى غير رجعة والأحداث التي تلاحقت سريعة متوالية وكانت بداية الانهيار.

وتذكر عبدالله تلك الحادثة بوضوح، وامتدت يده لا شعوريا كي يتحسس ندبا في جبهته، وتملكت جسده رعشة باردة فأحاطه بذراعيه وكأنه يحمي وجهه وجسده من ضربات تنهال عليه من كل حدب وصوب، وصدرت من أعماقه آهات خافتة، وعاد بخياله إلى تلك الليلة المشؤومة حين عاد إلى البيت متأخرا بعد سهرة مع الأصدقاء فتح عبد الله باب البيت بهدوء وحذر، وما كاد يخطو خطوة حتى سمع بكاء هيفاء ونحيبها، فجرى مسرعا نحو الغرفة التي يصدر منها الصوت... غرفة نوم هيفاء... وتسمّر عبد الله عند باب الغرفة من هول ما رأى، فقد كانت هيفاء جاثمة تحت قدمي إبراهيم وهي في ثياب نومها، وإبراهيم يركلها بقدميه تارة ويضربها بعصا كان يحملها بيمينه تارة أخرى. وانقض عبد الله على إبراهيم كي يمنعه ويصد بعض الركلات عن هيفاء. وفجأة ارتد إبراهيم نحوه وهوى بالعصا على رأسه وجسده وهو يكيل له السباب والشتائم، وجرى عبدالله نحو باب البيت وإبراهيم يطارده بالسباب والضرب...

- أخرج أيها الكلب... تتآمر معها عليّ لقتلي... أخرج ولا تريني

وجهك بعد اليوم.

وجرى عبد الله نحو الشارع والدماء الغزيرة تغطي وجهه، وفي اليوم التالي حملت هيفاء بعض أمتعتها وطفلها وذهبت إلى أبيها.

وبعد تلك الحادثة بشهرين حاول إبراهيم الانتحار للمرة الأولى.

رفع الطبيب نظارتيه السميكتين عن عينيه ووضعهما فوق الملف على مكتبه، ونظر إلى الشاب الجالس على الطرف الآخر وقال بصوت أبوي حنون:

- أعلم يا بني أنني أثرت فيك كوامن الأحزان والأسرار، ولكن عذري في ذلك بأنني كطبيب يحتم عليّ واجبي الإلمام بظروف المريض وحالته الصحية والنفسية... ونظر إلى عينيّ أحمد اللتين أخمد بريقهما الدموع وأردف قائلا:

- أطمئن يا أحمد، فحالة والدك الصحية في تحسن مستمر بعد أن تعدى الخطر تماما، أما عن حالته النفسية فتلك من اختصاص طبيبه الدكتور خليل، وسأبذل قصارى جهدي للتعاون معه لمصلحة والدك الصحية والنفسية.

ونظر أحمد إلى الطبيب نظرة امتنان وشكر وهو واثق من صدق الطبيب في كلماته وأحاسيسه نحوه، وقال في تساؤل:

- أتظن يا دكتور أن حالته النفسية ميئوس منها..؟

فابتسم الطبيب قائلا: إن الطب النفسي عالم واسع مجهول، والإنسان، كل إنسان، معرض لكثير من المؤثرات الاجتماعية

والوراثية والنفسية التي قد تؤثر على اتزان العقل وتصرفاته، ولكن الطب بمجالاته الواسعة وتخصصاته المختلفة لا يعرف اليأس أو يؤمن به بل على العكس تماما، فالطب يكافح المرض، أسبابه ودوافعه بأفضل أساليب العلاج وبكل ما يقدمه العلم والتجارب من تقنية حديثة ومضمونة.

وسكت الطبيب لبرهة، وقد شعر بابتعاد أحمد عنه بخياله، ثم قال متسائلا:

- لقد ذكرت لي أن عمك عبد الله حاول عرض والدك على طبيب نفسي قبل وقوع حادثة الانتحار الأولى.

- أجل، قبل وقوع الحادثة بأشهر قليلة دعا عمي أستاذا له في الجامعة هو الدكتور خليل لزيارة والدي زيارة ودية بعد أن أطلعه على بعض تصرفاته، فاستقبله أبي هادئا متزنا في كلامه وتصرفه حتى خرج الزائر بقناعة تامة بأن شكوى عمي مجرد وهم لا أساس له.

- لأن المريض النفسي يكون عادة شديد الحساسية والذكاء، ويستطيع بحذره أن يدرأ الخطر عنه بستار من الواقعية والاتزان.

ثم أطرق الطبيب قليلا وأردف قائلا:

- إن تسلسل الأحداث والظروف فرض عليك الحرمان من العيش في كنف والدك أثناء الطفولة، مما جعلك تشعر بالمسئولية نحو

والديك، والإحساس بالنضج المبكر الذي هو الجانب المضيء في تجربتك الصعبة، وسؤالي التالي دقيق بدقة الموضوع نفسه، ولكن لا بد منه لاستكمال الصورة... فهل شعرت خلال تجربتك المعيشية بكراهية لوالدك من جراء ظروف مرضه الذي جهلته كطفل ثم أدركته مع الأيام؟

وأطرق أحمد وكأن الطبيب قد أصاب بسهم الجرح النازف في قلبه وقال بآه طويلة:

- لا أدري يا دكتور، إن سؤالك شائك وصعب... لقد مرت لحظات عليّ كرهت فيها نفسي والعالم حولي. كانت تصرفات أبي تشدني وتخيفني حتى أثناء طفولتي، في غضبه وسكونه وشروده الطويل. بل كانت بعضها تثير الضحك بي لجهلي وبراءتي، كتلك الحادثة التي تكررت وكانت حصيلتها دائما ضربي وركلي... كان والدي يقطع صلاته ويعود للوضوء مرة بعد مرة، وفي ذلك اليوم أعاد الوضوء لستّ مرات متتالية، فتملكني الضحك، فما كان منه إلا أن هجم عليّ وأوسعني ضربا حتى فاض قلبي بالكره له، ولم تمض ساعة حتى عاد إليّ ليسترحمني بنظراته وهو يغمرني بحبه وعطفه حتى ذبت حبا بين ذراعيه. كانت تصرفاته تتسم دوما بالتناقض، محب أو كاره، هادئ أو قلق، ساكن أو ثائر كالبركان.

- الطبيب: أجل فهذه بعض الأعراض لحالة الهوس التي كانت تنتاب والدك بالإضافة إلى حالة الاكتئاب التي كانت تتملكه نتيجة لحياة الوحدة والتداعي التي كان يعيشها.

وقال أحمد بنبرة حادة:

- لهذا أحمّل نفسي وزر ما حدث له في هذه المرة، إذ كان من واجبي وقد أدركت مرضه، أن أرغمه بمساعدة عمي وجدي على مواصلة العلاج تحت إشراف طبي دقيق عوضا عن الوصول إلى حل ظننت به الخلاص من محنة فكان سببا لوصوله إلى شفير الموت.

وأطرق أحمد وكأنه يحاول تبرير ما حدث لنفسه قبل الآخرين، وقال بصوت مفعم بالندم:

- لست أدري... ولكن يبدو أنني أخطأت من حيث أردت أن أحسن. بت أشفق على والدي من وحدته وعلى والدتي من سنوات الصقيع التي تزحف على عمرها، وبدا لي أن سنوات الفراق قد لأمت كل جرح او ألم. كنت أتوق لحياة الأسرة السعيدة وأرى ذنبي يكبر يوما بعد يوم على قسمات وجه أمي، خاصة عقب تلك الساعات التي كان يمضيها الوالد معنا في بيت جدي يغدق عليّ من حنانه وحبه، وتتخطاني نظراته إليها معاتبة مؤنبة في صمت قاتل.

ووافق جدي على مضض بعد أن طمأنه الدكتور خليل بأن حالة والدي قد تحسنت بعد فترة العلاج التي استغرقت عدة أشهر، شريطة أن يداوم على تعاطي بعض الأدوية التي وصفها له. وكان يزكي إلحاحي بأن التئام شمل الأسرة سيعيد لنفسية أبي توازنها واستقرارها.

والتأم شمل أسرتنا الصغيرة، وعرفت سعادة حلمت بها طوال السنين السابقة، وندمت على سنوات أضعتها لجهلي وصغر سني

وأنا راض بما يمنحني كل من والديّ على حدة من حب ورعاية. وفي خضم فرحتي نسيت آلام السنين وانشغلت بنفسي عن كل ما حولي، مزهوا بقوتي وشبابي حتى هزني القدر من الأعماق حين عدت في تلك الليلة كي أشهد بأم عيني أعمدة البيت تهوي على أم رأسي عقابا لأنانيتي وعقوقي، أم تسبح في الدموع والدماء وتغطي وجهها، وأب مكوم في إحدى الزوايا يرتعش كفأر مذعور.

وضرب الطبيب بكفه على الطاولة أمامه وقال بلهجة صارمة:

- كفى، لقد عدت ثانية لإيقاع نفسك في دوامة الذنب والشعور بالمسؤولية لما حدث لوالدك متوهما أنك السبب في انتحاره هذه المرة.

رفع أحمد ببصره إلى الطبيب وفي عينيه نظرة عتاب عابرة وقال:

- أتخاف عليّ يا دكتور من رواسب نفسية قد تعيد قصة أبي..؟

رفع الطبيب نظارته عن عينيه وقال بنبرة بدت أقل صرامة وحدة:

- بل أجنبك مسالك وعرة ترمي بنفسك في مهالكها، فحالة والدك أخذت بالتدهور لأسباب عدة، قد يكون أحدها توقفه عن تعاطي الدواء الذي صرفه له الدكتور خليل، وهذا استنتاج بنيته وفق مجريات الأحداث التي ذكرتها لي سابقا...

- أحمد: لم أفهم ما ترمي إليه يا دكتور...

وأخذ الطبيب نظارته ووضعها على عينيه وهو هادئ، ثم فتح الملف وأخذ يقلب الأوراق أمامه، ونظر إلى عيني أحمد بتلك النظرة الصارمة وقال:

- سأعيد عليك بايجاز نبذة عن تطور حالة المرض عند أبيك في الأشهر الأخيرة قبل حادثة الانتحار. كلها مدونة هنا بالتسلسل وكما ذكرتها عرضا في حديثك لي سابقا، وعلى سبيل المثال لا الحصر.

- حالة القلق والتوتر التي كانت تنتابه تلزمه البيت دون مبرر مرضي ظاهر... وحالة الاكتئاب التي كانت تنتابه فيعتكف على أثرها في غرفته ساعات طويلة أو يختلق النزاع والشجار، مما دفعك للهروب من البيت لقضاء وقت أطول في المدرسة أو بين الأصدقاء...

- ثم حالة النسيان التي كانت تعاوده فيتوضأ أو يستحم مرة بعد أخرى، بالإضافة إلى إرغام والدتك على الاستحمام مرارا كلما أراد أن...

وصرخ أحمد هائجا كفى... كفى... وأجهش بالبكاء، وجسده ينتفض كريشة في مهب الريح، ونهض الطبيب عن كرسيه واقترب من أحمد وأحاط بذراعيه الجسد المرتعش وقال بحنان أبوي صادق:

- قسوت عليك يا بني، قسوت خوفا وإشفاقا من أن تحرق جذوة شبابك وعمرك في ذنب لم تقترفه يداك، يكفيك من العالم ما تحمل أيامه من تناقضات تجعل الإنسان منا صريع متاهات تتنازعه من كل حدب وصوب، والتكيف مع الواقع يا بني، هو الطريق إلى الخلاص. وقد فرضت الظروف عليك أن تنال أكثر من نصيبك من هموم الأيام في طفولتك وغض شبابك، فصهرتك التجربة المرة حتى جعلت منك عودا صلبا، فلا تفسد ما منحك الله من قوة وصبر وتكيف بعقد وأوهام لا ترحم.

أمسك الطبيب بذراع أحمد وسارا معا في ردهات المستشفى الطويلة نحو غرفة الإنعاش، وتقدمت ممرضة بلباسها الأبيض نحو الطبيب وأسرت له ببضع كلمات، ثم سارت بخطى سريعة بالاتجاه نفسه، فبادر أحمد الطبيب ونظراته القلقة تسبق لهفة كلماته:

- يبدو أن في الامر سوءا، طمئنّي يا دكتور عن حالة أبي أرجوك.

فانفرجت أسارير الطبيب قائلا:

- إطمئن يا أحمد، لقد صحا والدك من غيبوبته، والفضل في ذلك يعود أولا لرحمة الله ولطفه به وبك، وثانيا لإحضاره للطوارئ قبل فوات الأوان.

وتهلل وجه أحمد فرحا، ودموع الفرح والقلق تكسو عينيه، وقال بنبرة صادقة:

- إن الله منّ عليه ببقية عمر، وكنت أنت وزملاؤك وسيلة الله في

أرضه ملائكة للرحمة والحنان.

ثم أردف قائلا بلهفة:

- هل نستطيع رؤيته الآن يا دكتور؟

- سنذهب سويا للاطمئنان عليه.

وفي الصالة المقابلة لغرفة الإنعاش رأى أحمد عمه عبد الله جالسا على مقعد هناك ورأسه على صدره، فتقدم نحوه وهز كتفه بقوة فتح عبد الله عينيه على أثرها هائما: من.. من؟

- أحمد: إنهض يا عمي، لقد صحا الوالد من غيبوبته، وزال الخطر عنه تماما بفضل رعاية الله وعناية الدكتور.

ونهض عبدالله مسرعا باتجاه غرفة الإنعاش، فاستوقفه الطبيب قائلا:

- أتوخى منكما ضبط النفس والهدوء، فالانفعال الشديد قد يضر به، وهكذا الضجيج والحديث.

قال الاثنان معا: حاضر يا دكتور.

أمسك الطبيب برسغ إبراهيم المسجى على السرير الابيض وكأن وجهه - لشحوبه- قد أصبح بعضا منه، بينما وقف عبدالله وبجانبه أحمد على الناحية الأخرى من السرير يحملقان بالجسد الذي بدا صغيرا وهزيلا، والدموع تملأ المآقي والعيون.

فتح إبراهيم عينيه بصعوبة فائقة ونظر إلى وجه الطبيب للحظة، ثم جال ببصره إلى وجه عبدالله المحتقن بالألم المكبوت، وحاول أن يفتح شفتيه بكلمات خافتة هامسة بدت كفحيح أفعى تتلوى بالأوجاع والألم. وحين أعيته المحاولة أغمض عينيه كأنه يستجمع ما بقى من قوة في جسده الهزيل، ثم مدّ يده من تحت الملاءة البيضاء وأنامله الهزيلة المعروقة تزحف تائهة، تائبة تطلب الغفران بخشوع في لحظة نادرة في الصدق والشعور، ومن عينيه تسربت دموع صامتة كجمرات حارقة حزنا وإشفاقا على نفسه والآخرين وخوفا من غد قاتم ومستقبل مجهول.

ونهض أحمد والدموع تملأ عينيه ورمى برأسه على الكتف الحنون، فأحاطه الطبيب بذراعيه مربتا على كتفيه برفق وقال:

- تمالك نفسك يا أحمد، وسر بقلب مؤمن وعود صلب لا تكسره الأيام وصعابها، فطريق العذاب يا بني شاق وطويل.

(٢)

لماذا تغيب الشمس؟

خرج يوسف مسرعا نحو سيارته، وشعر بالارتياح حين لامس جسده مقعد السيارة واستقرت يداه المرتعشتان حول المقود وانطلقت به يسارع بها الرياح في الشارع الطويل المؤدي إلى خارج المدينة. لم يكن يقصد مكانا أو شخصا معينا بل تنهب السيارة به الطريق على غير هدى، وكلما داس على البنزين مسرعا شعر بالانطلاق والراحة... لا يعلم سببا لسرعته سوى الهروب من كل شيء... الهروب من وحدته في بيته، وعمله وحياته، فكل من حوله يدبر له المكائد أو يريد به شرا.

وأوقفه شرطي المرور عند إشارة حمراء حاول تجاوزها - اسمك أوراقك.. تأمين سيارتك.. الخ.

ثم انحنى عليه ليشم رائحة خمر أو غيرها. وقال الشرطي وابتسامة على وجهه:

كل ما لديك سليم، ولكن ما دواعي سرعتك القاتلة لنفسك أو لغيرك؟

يوسف: لحضور جنازة قريب عزيز.

الشرطي: عظّم الله أجركم وأعانكم، ولكن سرعتك ستجعل من الجنازة اثنتين أو أكثر، فترفق بنفسك وبالآخرين.

وسار يوسف الهوينى لفترة قصيرة، ثم داس على البنزين فانطلقت سيارته ومعها أفكاره في تسابق محموم.

يخيفني ويردعني بذكر الموت وهو ظلي، فما نفع أن أمشي الهوينى والموت يلاحقتني كيفما سرت؟ فقد أخذ الموت أمي وتركني، أمهلني لأيام قليلة يلاحقني بها، يذيقني الشوق إليه بانتظاره في كل لحظة من لحظات يومي، أمضيها في شرود والخوف ينتابني من كل يد تمتد لي، فأهرب من نفسي ومن الآخرين إلى الهروب المجهول. وعندما تغيب الشمس ويأوي الكل إلى فراشه آوي إلى وحدتي ومخاوفي، وتتربع صخرة بحجم الكون على صدري، فتتعثر أنفاسي المتلاحقة كنعيب بوم وعيناي مسمرتان في سقف الحجرة لأرى أشباحا تتحول إلى مارد يملأ سقف الغرفة ويداه تحاولان الإمساك بي، وتشتد القبضة حول رقبتي... فأزفر زفرتين أخيرتين، وأعلم أن الصخرة ما زالت على صدري وأن قلبي ما زال ينبض بالحياة، فأغمض عيني لأبعد عنهما الأشباح والخيالات المزعجة، وأغلق جفني بإحكام لأرى في السواد والظلمة دوائر

صغيرة خضراء اللون أو حمراء يتوسطها سواد غريب يكبر ويكبر حتى يبتلع الدائرة كلها. ويكون السواد كالبؤبؤ في وسط العين صغيرا ثم يكبر ليصبح على شكل غراب يهم أن ينقر بؤبؤ عيني، أو نمرا شرسا صغيرا يغرس أنيابه في جسدي، أو مطرقة تمسك بها يد عملاقة لتهوي على أم رأسي.. فأفتح عيني رأفة بعقلي وأنهض في غفلة الموت، أتلمس نور الصباح بلهفة كي أهرب من بيتي ومن نفسي ومن الحياة التي تتربص بي في كل لحظة من لحظات عمري القصير.

وفي يوم آخر يخرج يوسف خائفا هاربا من نظرات الشك والريبة من زملائه في العمل... يستقل سيارته ويهبّ بها مسرعا كعادته، هاربا من الخوف والموت فيصطدم بعامود نور يقع فوق سيارته فيشطرها، ويبقى يوسف حيا يرزق ولكن... وبعد علاج جسدي طويل يحال إلى مستشفى الأمراض العقلية لعلاج ما دمره الوسواس من عقله ونفسه.

(٣)

التوأم

صفق عصام الباب خلفه وسار نحو المدرسة القريبة من منزله حيث يعمل مدرسا، وكانت تلك الدقائق التي طالما أطالها بالسير حول المدرسة حتى يعيد لنفسه توازنها قبل الدخول إلى حرم المدرسة ومواجهة تلاميذه وزملائه من الأساتذة.

ورغم ما كانت أمّه تسبب له من ضيق إلا أنها كانت أعز النساء لديه؛ فهي أمه التي أنجبته وأحبته وربته، ولكن كانت تثيره دوما بمقارنته بأخيه التوأم عصمت الذي كان الأثير لديها منذ الصغر، لكونه الجميل الشكل، المنظم، الأنيق المظهر، بينما هو يشبه أباه في كل شيء - رحم الله أباه. فبالرغم من قسوته وجبروته إلا أنه كان منصفا عادلا في معاملته لأولاده.

وتعلو الابتسامة شفتي عصام. قريبا سيكون له بيت وزوجة مثقفة تعامل الأبناء بعدل وحكمة، ويبرر تصرفات والدته بإرجاعها إلى الجهل سابقا والسطوة لاحقا بعد موت والدهم منذ سنتين أو يزيد. ولكن بزواجه من رباب يغلق باب المشاحنات

والمقارنات، وينتقل إلى شقة تجمعه بزوجته، بينما يبقى عصمت مع والدته في بيت الأسرة حتى بعد زواجه.

خرج عصمت إلى عمله بعد أن طبعت الأم قبلة على خده - وهي تدعو وتبسمل له- جميلا، أنيقا ، يمشي بخيلاء وأنفة وكأنه يملك الكون وينظر بعلياء إلى شباب الحي وشاباته وكأنه الملك المتوج، وهو موظف بسيط في إحدى الدوائر، وكان أكثر بدانة من أخيه عصام لشدة نهمه وحبه للأكل في حالات فرحه أو اكتئابه.

وتطلع إلى النافذة المعلقة في الطابق العلوي عله يرى وجه فاطمة قبل أن يقبع داخل سيارته القديمة في طريقه إلى عمله. وابتسم لنفسه قائلا: فاطمة فتاة بسيطة خطبتها لي أمي؛ لأنها تشبهها وهي تعرف أين تكمن سعادتي، فهي سبب وجودي وسعادتي منذ عرفت الحياة، ورغم إعجاب الكثيرات من فتيات الحي بي اخترت فاطمة لقربها من والدتي وموافقتها على العيش معنا في بيت الأسرة، بينما الأخريات يردن بيوتا مستقلة كزوجة أخيه عصام.

فجأة سقطت أم عصام طريحة الفراش إثر نوبة قلبية لم تمهلها طويلا. وساد البيت ظلام دامس وحزن عميق، وأصيب عصمت بصدمة مفاجئة، وسقط مغشيا عليه، وأخذ يهذي بكلام غير واضح، ونقل على إثرها إلى المستشفى حيث مكث أسبوعين ثم عاد إلى البيت وهو في حالة هدوء غريبة. ولم يتركه عصام بل بقي معه حتى اطمأن عليه... يعطيه الدواء في المواعيد المحددة ويتحمل فورات غضبه وهياجه - أو فرحه واكتئابه- وبعد فترة من العلاج استقرت حالة عصمت وعاد إلى عمله، واستقرت صوريّاً أحواله، ثم عادت الأمور إلى حالها لكل من الأخوين.

رمى عصمت بجسده المتعب على السرير في غرفته ودقات قلبه المتلاحقة تزيد من تصبب العرق من مسام جلده، مجهداً بشعور غامض وكأن قبضة من حديد تمسك بقلبه تعتصره، وبأنامل خيبته تحيط عنقه بإحكام، فتتسارع أنفاسه مع دقات قلبه فيمد يده المرتعشة إلى علبة الدواء على منضدة قريبة ويبتلع بعض الأدوية، ثم يترك جسده مسجى دون حراك، والشعور بالهلامية يسيطر عليه وكأنه ريشة ضئيلة، روحا تطير في سماء الغرفة تنظر إلى جسده الضخم المسجى على السرير وكأنه خشبة ممددة. وتبرز صورة أمه لتملأ الغرفة وعينا والده الثاقبتان تلاحقانه بنظرات الاستهزاء والسخرية، وطلقات كالرصاص تخرق أذنيه... لو كنت بنتا لأدركت سبب تشبثك بأمك، لكنك أصبحت شابا مكتمل الرجولة وما زلت تعيش داخل ثوب أمك كم كان يكره أباه... كم كان يمقت تقربه لها ثم انفراده بها حين يغلق باب الغرفة عليهما ويسود الظلام وينسل لينظر من ثقب الباب خلسة، فتنتابه مشاعر متناقضة بالغضب والكره والغثيان، فيهرع إلى الحمام ليفرغ ما في جوفه... ويكرر ذلك كلما عاود في مخيلته ما رأى أو تراءى له.

هرعت فاطمة إلى أمها والدموع تملأ وجهها وقالت بعصبية واضحة:

- لا أستطيع العيش معه. أرجوك يا أماه الموت أرحم لي من البقاء معه لقد خسرت صحتي وأخاف على نفسي من فقدان عقلي.

- الأم: هدئي من روعك يا ابنتي، فالشباب والرعونة ما زالا يتملكان طباعك، وهذه ثالث مرة تأتيني باكية شاكية... وبعد ذلك تعود المياه لمجراها الطبيعي.

- لم أعد أحتمل وخلاصي بالخلاص منه نهائيا...

- الطلاق، أعوذ بالله... فوالدك رجل وقور وله سمعته ومكانته ولن يقبل بسخافاتك هذه، فكل الرجال يثورون ويغضبون، وعصمت رجل يحب النظام والنظافة والترتيب، فإن كان هذا ما يثيره ويغضبه فلا تتركي له مجالا لذلك، بل كوني كما عهدتك جميلة نظيفة في بيتك ومظهرك، فزوجك يحبك، ويحاول إصلاح نفسه ويعتذر لك كلما أساء لك وأغضبك.

وأجهشت فاطمة بالبكاء...

- ما الأمر يا ابنتي؟ هل يتطاول عليك بالإهانة والضرب مثلا؟

وهزت فاطمة رأسها وهي تنتحب.

- الأم: وماذا أيضا، ماذا؟

- فاطمة لا أستطيع البوح... لا أستطيع

- الأم : أتخجلين مني، فأنا أمك وغطاء سترك.

- فاطمة : أرجوك يا أماه اعفيني، وارحميني بتخليصي منه... أتوسل إليك.

- الأم : أسمع أولا وأحكم بعد ذلك، ولا تخافي البوح لي، فلن أذكر ما تقولين لمخلوق آخر.

- فاطمة : أخاف منه يا أماه، فهو ملاك جميل في حين، وشيطان رجيم في حين آخر.. يغضب ويملأ البيت صراخا لأتفه سبب؛

لأنني لم أغسل أدوات حلاقته مثلا ثلاث مرات يوميا دون أن يستعملها، ثم يهدأ ويتودد ويملأ البيت بالنكات والضحك، ثم يجلس وحده مقطب الحاجبين حزيناً، يلتهم كل ما تصل إليه يده من طعام وكأنه تمثال من الشمع تتحرك يداه بحركات لا إرادية..

- الأم : لم تقولي جديدا بعد، ففي كل مرة تذكرين هذه الأسباب وتقفين دون البوح بالمزيد، وهذه الأسباب جميعها لا تستدعي طلب الطلاق.

- أماه اغفري لي ما سأقوله، ولكن ومنذ ليلة زواجنا شعرت بأنه يتقرب لي وينفر مني... يتقزز من وجودي قربه. فبعد أن ينام في سريري ينهض مسرعا إلى الحمام وأسمع قيئه المتلاحق، ثم يبقى في الحمام لساعة أو يزيد يغتسل ويغتسل، ثم يعود إلى الفراش المجاور يتقوقع كالمجذوم فيه، وينهض باكرا ليدخل الحمام مرة ثانية، ويبقى به طويلا طويلا ويخرج من البيت دون أن ينظر في وجهي وكأنني بائعة هوى يتقزز من رؤية وجهي في الصباح أو نجاسة يتوقى منها ويعافها. وإن أدركته لأجهز له شيئا يأكله أو أساعده في تجهيز ثيابه يبعدني عنه وكأن بي جربا يود الابتعاد عنه، ويبقى كذلك بضعة أيام ثم يعود لطبيعته السابقة المتأرجحة بين الفرح والاكتئاب. وإن تمنعت حفظا لكرامتي، يرغمني ثم يعيد معي صورة المذلة والمهانة في كل مرة. فلماذا أبقى مع زوج يتقيأ ويغتسل كلما نام في سريري وكأني رجس من الشيطان؟

وضمت الأم ابنتها فاطمة بحنان ولهفة وقالت في شرود:

أعانك الله يا ابنتي، لقد قاسيت وكتمت، وحان الوقت أن نجد حلاً أو علاجاً.

هذا الكتاب

صورة مجسّمة رسمتها بصدق وواقعية أوراق طبيب نفسي وقلم روائية حاولا معاً نقل صورة حيّة لقطاع من المجتمع اضطرته ظروفه أن يزور عيادة الطبيب وشاءت له أقداره أن يلتقي بالكاتبة.

رؤية متكاملة تداخل فيها العلم بالأدب دون أن يتجاوز أحدهما حدود الآخر أو يفقده نكهته أو يجرده من أدواته.

لوحة ناطقة تكاملت فيها وصفات الطبيب مع أحاسيس الأديب فجاءت تعبيرا حياً يفتح آفاقاً جديدة أمام التشخيص الطبي والإبداع الأدبي معا.